

بشير خلف

مقالات في الفكر والإبداع

تفكير فاسم

خلف بشير

تغاريذ قلم

.. في الفكر، والفن، والأدب

عنوان الكتاب: تفاريدُ قلم
نوعه : مقالات في الفكر،
والفنون، والآداب.

المؤلف : بشير خلف

كتابة، تنسيق : بشير خلف
تصميم الغلاف:

الفنان التشكيلي كمال خزان



9789931650263



ولاية الوادي - الجزائر

☎ 032 14 93 39

☎ 0557 97 44 43

✉ imp.alwady@gmail.com

الإيداع القانوني:

السداسي الثاني 2017

ردمك :

978-9931-650-26-3

جميع الحقوق محفوظة ©

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

في أي مجتمع ينشد التقدم، تكون الثقافة هي المغذّي الأساسي الطبيعي لكل نواحي التنمية فيه، لكونها المستدامة في ذخيرته الحية، حيث تنطلق منها جميع الرؤى المؤسّسة للإبداع والتطور، بما يخدم البلاد والناس جميعا. فالثقافة ليست حكرا على طيف من دون آخر، وإنما هي المحصلة الطبيعية لتعايش المجتمع بكل ألوانه.

إذ عرّف (ريموند وليام) أحد التّقاد البريطانيين المعاصرين: الثقافة بأنها "الطريقة الشّاملة للحياة". وللثقافة جانب ديناميكي فاعل يتضاعف باطراد، إذ يتضمن دورها في توجيه سلوك الإنسان، كما يراها العالم البولندي المختص في علم الإنسان "برونيسلاف كاسبر مالينوفسكي" الذي اعتبر: «الثقافة جهازا فعّالا ينتقل بالإنسان إلى وضع أفضل؛ وضع يواكب المشاكل التي تواجه الإنسان في هذا المجتمع أو ذلك، في بيئته، وفي سياق تلبيته لحاجاته الأساسية». فهي قدرةٌ خلاقة تمكّن الإنسان من توسيع رحاب نفسه عن طريق النشاط الإبداعي الأصيل؛ باعتبار أنّه ليس مستهلكاً لتراثه الثقافي فحسب؛

بل إنه كذلك مستمرّ، ومساهم هو أيضًا في الإبداع، والزيادة على ما وصل إليه.

ومن هنا فالمجتمع الذي يفتقر إلى مشروع ثقافي معرّضٌ إلى الاهتزازات التي تنخره من الداخل، فتعزّيه مسببات التآكل، وفقدان الحصانة؛ بل والتفكّك. الثقافة ليست مادة دستورية نُضيف إليها في كل تعديل دستوري عبارة، ونعقد الندوات في وسائل الإعلام متغنين بهذه الانتصارات الوهمية التي لا تضيف شيئًا لواقع الثقافة في المجتمع الذي ترسّخ في أذهان أفراده أن الثقافة مهرجانات لأغنية الراي، وموسيقى ورقص الشباب. الثقافة مشروع مجتمع، تاريخه مُشبع بمحمولات تراكمت، وتدعّمت من مقاومات أجيال متتابعة، بوصلتها روحانيات جذرت هوية متينة لأمة صعبُ النيل منها. المشروع الثقافي في رأينا لا يأتي تلقائيًا، إنما النُخب من خلال تشخيص، وتقييم الراهن الفكري، والثقافي، والإبداعي، تتولّى بدورها وضع استراتيجية ثقافية وفكرية على المدى القريب، فالمتوسّط، فالبعيد.. غير غافلين على أنّ النخب السياسية موالاة، ومعارضة لا تهتمّ بالثقافة أصلا، وليس لها موقع في برامجها، لكن نُخب المجتمع المتغلغلة في مفاصله قادرة على تجسيد المشروع الثقافي بدون غوغاء سياسية يرافقها تهريج إعلامي،

من أكاديميين كُتّاب، ومبدعين، ومن أدباء مبدعين في السرد، والشعر، والمسرح، وكُتّاب السيناريو، ومنتجين للسينما، وتشكيليين، وإعلاميين معروفين بخبرتهم الطويلة، وإعلاميين مبدعين في الإبداع الأدبي، وعددهم ليس بالقليل، وقد تتسع القائمة كي تشمل حقوقيين، واقتصاديين، ومؤرخين، ومترجمين، والنفسانيين، ومتخصصي علم الاجتماع، والمهتمين بالبيئة، والحفاظ عليها، وثقافة نشرها؛ وحتى رجال الدين ممن لهم باعٌ كبير ومؤثرٌ في الخطاب الديني، القيادات الكشفية، قيادات الشباب، وأهل التربية. إن رؤيتنا للثقافة تتجاوز النظرة التقليدية، حيث نراها الشريان القوي الذي يغذي جسم المجتمع بكلّ مكوناته، ويبعث فيه الحيوية، ويحفّزه على العطاء، والارتباط بالحياة، واستشراف المستقبل، ولما تكون هذه الثقافة بهذه الصفة تكون قائمة، وباعثة للأمل والطموح، وخالقة للجمال والفنون، والآداب.

الثقافة الحقّة هي مواجهة كافة ظواهر القبح في المجتمع المتمثلة في الفساد السياسي، والمالي، والعشوائية والفوضى والانهيار الخلقى، والسلوكي، والعمل على مقاومة هذه الأمراض التي تفتك بالمجتمع، وإعادة اكتشاف ما لدينا من مواهب، وقدرات تساعدنا على إعادة

بناء الذات، والمجتمع على حدٍ سواء، وتدعيم الجمال في البيئة كتحسين البيئة المحلية، وحُسن تسيير المدن، والأحياء من حدائق، وشواطئ، ومنتجعات، ومتاحف وآثار مختلفة وتأسيس التربية الجمالية والإحساس بالجمال والتذوق الجمالي، خاصة عند الطفل والشباب، والنظر إلى الحياة نظرة إيجابية.

جوهر الجمال هو تحقيق التوازن في المشاعر، والأحاسيس، والحكم على الأمور بطريقة صحيحة دون مغالاة. علمًا أن الفرد ليس مخلوقًا فحسب؛ إنما هو إنسان يكتسب إنسانيته من تعايشه مع الآخر في انسجام وحميمية، وهذه لن تتأتى إلا من خلال التربية الروحية من عقيدة دينية إسلامية سمحاء، وملسات أدبية، وفتية، فالأدب تربية للوجدان إذ هو مرآة لكل زمان ومكان، فما كُتب في التاريخ غالباً من باب قوة سياسية وتوجهاتها، وأما الأدب فهو مرجع أصدق، وأغنى لمعرفة أحوال الناس، وشؤونهم في مرحلة زمنية ما. وهكذا فإن محتوى الأدب، أبعد من مضمونه المرتبط بمعاني الكلمات، وجماليات التعبير والصياغة، فهو بمثابة الأسس التي تُغني الحياة وتضيف لها. كما أن ثقافة الإنسان لا تحدّها حدود، ومن وسائلها الرئيسة الكتاب كمُعبرٍ عن مدى تقدّم الإنسان وراقيه، فالإنسان الذي

يعتمد كثيراً على الكتب في مجال عمله، وحياته هو إنسان يسعى للتقدم والتطور بلا شك.

هذا الكتاب "للقلم تغايريد" مجموعة مقالات في الفكر، والأدب والجمال، وعالم الكتب، بعض هذه المقالات نُشرت في يومية الحياة الجزائرية، وبعضها الآخر في مواقع إلكترونية: الحوار المتمدن، أصوات الشمال، وبعضها الآخر لم ينشر، تشكل مجتمعة رؤى شخصية لقضايا متعددة في حياتنا الجزائرية المعاصرة، عسى القارئ الكريم يجد فيها ما يروق له .

قمار في : 30 سبتمبر 2017

أفكار²⁴ في التواجهية

هل تكفي دسترة الثقافة ..؟

نصّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لسنة 1948 على حقّ الإنسان في الثقافة، مؤكداً أن لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير والتعلم، وأن يشارك اشتراكاً حراً في حياة المجتمع الثقافية، وفي الاستمتاع بالفنون، والمساهمة في التقدم العلمي، والاستفادة من نتائجه، وحماية المصالح الأدبية، والمادية المترتبة على إنتاجه العلمي، أو الأدبي، أو الفني (المواد 19 و 26 و 27 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لسنة 1948).

لقد هلّل الكثير عندنا للمادة 38 مكرّر من الدستور الجزائري المعدّل، ورأوا فيها طوق النجاة للثقافة، والواحة الجميلة التي تفتح ذراعَيْها للمثقفين، والمبدعين، والمهتمين بالتراث الثقافي، والفكري، ولو عادوا إلى الدساتير السابقة لوجدوا فيها إشارات، وتلميحات للثقافة، بداية من دستور 1962، وانتهاء بدستور 2008 المعدّل (بكسر الدال) لدستور سنة 1989 ، الذي ورد في المادة 38 منه: "حرية الابتكار الفكري، والفني، والعلمي مضمونة للمواطن. " وقد كرّرت نفس المادة في دستور 2008 بإضافة " حقوق المؤلف يحميها القانون

"نتساءل: وهل إدراج الثقافة لفضاً في الدستور المعدل يعد خطوة مهمة، وضرورية لصالح الثقافة، والمشروع الثقافي والاستراتيجية الثقافية ككل، وأنها في المقابل ستفتح أفقا أوسع وأرحب وأكثر على المشهد الثقافي الوطني، راهنا ومستقبلا، أم هي فقط خطوة بنيات طيبة للثقافة، وفتح الباب أمام مشروع ثقافي وطني واسع، وشامل؟

وهل أصلاً يوجد عندنا مشروع ثقافي في الجزائر، ترافقه استراتيجية ثقافية؟ قبل تعديل الدستور، أو بعد تعديله؟ فالمادة 38 مكرر من الدستور المعدل في سنة 2016 تنصّ على "الحقّ في الثقافة مضمونٌ للمواطن. " كما ورد في نفس المادة: " تحمي الدولة التراث الثقافي الوطني المادي، وغير المادّي، وتعمل على الحفاظ عليه. "

مقارنة بما جاء في نصّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وما جاء في المادة 38 مكرر في الدستور المعدل سيلاحظ القارئ تباعدا في المفهوم، والتشخيص، وفي حقّ التمتع بالثقافة وما يتفرّع عنها، وكذا ضباية الحق في ضمان الثقافة للمواطن الجزائري، وعدم النصّ على هيئة عليا للإشراف على الثقافة، أو الآداب والفنون، ممّا يجعل أمر الثقافة والفنون، والآداب، والإبداع الفكري رهين أمزجة من يتولّون زمام هذا القطاع... ولنا عودة للموضوع. يبدو أنه من الصعب تحديد

مفهوم الثقافة تطبيقيا، فمن الناحية النظرية أدلى الكثير من المفكرين، والباحثين والمنتقنين في تعريف الثقافة منذ عقود من الزمن، ولا تزال التعريفات تتوالى، وخاصة في السنوات الأخيرة لما تغلغلت العولمة في كل مفاصل المجتمعات.

جميل جداً أن تندستر الثقافة باعتبارها حقاً من حقوق المواطن، وأن يُنصَّ عليها في مادة خاصة بها، إلا أن ما هو أهم أن يُنصَّ أيضا على هيئات عليا رسمية مُدسترة تتولّى مرافقة المادة 38 " مكرر " على غرار " المجلس الأعلى للثقافة والآداب، والفنون " كي يتولّى فيما بعد تنصيبه تشخيص واقع الثقافة ، والآداب، والفنون في الجزائر، بمشاركة الفاعلين، والمنتجين من النُخب، وعلى نطاق مُوسّع من أكاديميين، كُتّاب ، ومبدعين، ومن أدباء مبدعين في السرد، والشعر، والمسرح، وكُتّاب السيناريو، ومنتجين للسينما، وتشكيليين، وإعلاميين معروفين بخبرتهم الطويلة، وإعلاميين مبدعين في الإبداع الأدبي، وعددهم ليس بالقليل، وقد تتّسع القائمة كي تشمل حقوقيين، واقتصاديين، ومؤرخين، ومترجمين، والنفسانيين، ومتخصصي علم الاجتماع، والمهتمين بالبيئة، والحفاظ عليها، وثقافة نشرها؛ وحتى رجال الدين ممن لهم باعٌ كبير ومؤثّر في الخطاب الديني، القيادات الكشفية،

قيادات الشباب، وأهل التربية. هذه النُخب من خلال تشخيص، وتقييم الراهن الفكري، والثقافي، والإبداعي، تتولّى بدورها وضع استراتيجية ثقافية وفكرية على المدى القريب، فالمتوسّط، فالبعيد.. هي أرضية من خلالها تتولّى إدارة القطاع الثقافي مركزيا، فمحليا إصدار تنظيمات، ونصوص تسمح بإدارة الشأن الثقافي بتعاون الجميع.

ما يأسفُ له المتبّع للشأن الثقافي أنّ مرحلة النقاش العام في السنة الفارطة 2015 للدستور، مرحلة الإثراء لم تستدع إليها النخب التي ذكرناها سابقا، حتى وإن كانت هناك مبادرات لا تعدو أن كانت في الصحافة المكتوبة بادر بها إعلاميون في هذه الصحيفة، أو تلك.

وقد تساءل، بل احتجّ البعض من هذه النُخب؛ فكان الجواب: "إنّ وثيقة الدستور وثيقة قانونية يتولّى شأنها أهل السياسة، وأصحاب القانون" قد يقول قائلٌ وكيف يمكن دعوة كل أطراف هذه النُخب ؟ الجواب : يمكن من خلال التفويج: فوج الكُتاب الأكاديميين ، فوج

المبدعين أدبا، فوج المسرحيين، فوج السينمائيين، فوج المؤرخين، ... في تقديري الشخصي ليست العبرة في حصر " الثقافة لفظة " في مادة دستورية ، إنما الثقافة التي هي روح المجتمع أوسع، وأهمّ بكثير من هذه اللفظة .

أزمة غياب مشروع ثقافي مجتمعي متكامل

في العقود الأخيرة من القرن العشرين كانت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (S.N.E.D) بالكاد الشركة الوطنية الوحيدة التي تحتكر طباعة، ونشر الكتاب بالجزائر، وعدد النسخ التي تُطبع حينذاك مرتفعة، وثمان الكتاب منخفض جدا، لأنه مدعم من الدولة، ومكتبات الشركة منتشرة في أغلب الحواضر الجزائرية، حتى تمارست، وبشار، ورقلة؛ إلا أن الكتب ظلت مكدسة في مخازن الشركة، وخاصة بمخزنها الرئيس بباب الوادي، وفي السنوات الأخيرة من عمر الشركة عشرات العناوين لكتاب معروفين جزائريين سيما الروايات كنا نشترها بدنانير لا تزيد عن أصابع اليد من مكتبات الشركة التي تستقبل أعمال الكتاب باللغتين، ولجان القراءة بها تُقيم فترفض، أو تقبل، فتطبع وتسوق، والدولة سخّرت لها كل ما يساعد على نشر الكتاب إلى أبعد نقاط الوطن، ورغم ذلك الكتب مكدسة، بالرغم حينذاك أن نسبة المقرئية مرتفعة مقارنة بأيامنا هذه.

ومنذ سنة 2007.. سنة الجزائر عاصمة للثقافة العربية التفتت وزارة الثقافة إلى الكتاب، وتولّت طبع مئات العناوين في كل مناحي الفكر، وحفّزت الكتاب، والمبدعين على التأليف، فظهرت في الساحة الثقافية أعمال كل من لديه موهبة الكتابة، إلا أن هذه الكتب التي تتكفل بها الوزارة لا تُباع؛ بل تُوزع على المؤسسات الثقافية، والمكتبات التابعة لوزارة الثقافة ومنها المكتبات الرئيسة بمقر الولايات، وفروعها البلدية؛ إلا أن الملفت للانتباه أن هذه الكتب بدورها مكدسة بهذه المؤسسات، بل منها ما يزال في الكراطين، وأغلب المثقفين، ومن هم في حاجة إلى هذه الكتب لا يعرفون عنها شيئا لأن علاقتهم بهذه المكتبات شبه منعدمة، بل حتى المؤلف الذي يأخذ نسبة عشرة بالمئة من ثمن الكتاب لا يأخذ من دار النشر التي تطبع كتابه في إطار عقد مع الوزارة أكثر من عشرين نسخة لا تكفي حتى أصدقاءه، فلا يتمكن من ترويج كتابه، أو التعريف به، ولا يجد كتابه في أيّ مكتبة كي يشتريه، وترفض دار النشر منحه، أو بيعه نسخًا أخرى. مجهودات كبيرة، وأموال تُصرف لنشر الكتاب، وتوزيعه، وتقريبه من القارئ الكبير والصغير وباللغتين، إضافة إلى تنظيم أيام للمطالعة، واحتفائيات " القراءة في احتفال " بأغلب ولايات الوطن،

ضفّ إلى ذلك تزويد هذه المكتبات المنشرة في كل الولايات، والعديد من البلديات بآلاف العناوين في كل مجالات الفكر الإنساني، والعلوم والتكنولوجيا كل سنة من آخر الطبعات من مصر، لبنان، المغرب، السعودية، فرنسا، بلجيكا، وغيرها؛ إلا أن دخول هذه المكتبات والاشتراك فيها، والاستفادة منها محتشم؛ حتى أن مسؤولة مكتبة وهي تُربي آلاف العناوين المرتبة بالرفوف، وأخرى وصلت حديثاً تنتظر دورها في الفهرسة ثم الترتيب تأسفت بمرارة على هذه الكنوز من المعرفة الإنسانية التي لا تجد من يُقبل عليها.

تكدّس الكتب في المخازن، ورفوف المكتبات دون أن تمتدّ إليها يد القارئ الجزائري ليست في القطاع الثقافي العام؛ بل حتى في دور النشر الخاصة حيث نجد من بين أزيد من مئة دار نشر خاصة، منها خمسة دور نشر كبرى تابعة للقطاع الخاص تتوفر فيها معايير الاحترافية السائدة في دور نشر العالم المتقدم، هذه الدور التي تصدر سنوياً ما يقارب 500 عنوان في دار القصة والبرزخ، وألفا ديزاين وهومة، والشهاب إلى جانب جمعيات ثقافية تتقاسم مع هذه الدور سوق الكتاب في الجزائر من بينها جمعية الجاحظية، وكذا رابطة كتاب

الاختلاف التي استطاعت نشر أزيد من 150 عنواناً منذ تأسيسها العام 1998 إلى اليوم.

في تقديري الشخصي المعضلة ليست في النص.. فالنص الجزائري المعاصر ذو مستوى عالٍ؛ إنما المعضلة في عدم وجود القارئ، وذلك نتيجة انعدام مشروع ثقافي استراتيجي متكامل كسائر القطاعات الأخرى بالمجتمع، مشروع تتعاقد فيه كل القطاعات المهمة بالتنشئة الاجتماعية، والثقافية، والتكوينية، من خلاله يُكوّن القارئ منذ صغره في علاقة حميمة مع الكتاب بدءاً من الأسرة. المقروئية كما هو معروف تحصل بإجادة مهارات القراءة والتعود عليها بالدربة لتحوّل إلى مطالعة واعية تثقيفية، مُنطلقها الأول، والأسرة الجزائرية بالرغم من تحسّن مستوى الدخل لديها، ولدى الطبقة الوسطى من المجتمع الجزائري، فإنها تُنفق على الكماليات، واقتناء الأجهزة المنزلية، وآخر صيحات الأثاث، ولا تنفق على الكتاب، والنظام التربوي يؤكد على الأعمال التربوية التكوينية المكتملة، والمدعمة للعملية التعليمية كالأنشطة الجمالية، والترفيهية، والمطالعة المخصصة لها أسبوعياً حصصاً زمنية، والكتب بالمؤسسات متوفرة بما فيه الكفاية؛ إلا أن الأساتذة والمدرّسين يهملونها، أو يعوضونها بمواد رئيسة.

بدائل معاصرة تُطيع بالمتقف التقليدي من عليائه

كلما وقع المجتمع في مأزق، أو ألمَّ به خطبٌ ما، أو واجه معضلة تاريخية تساءل أفرادُه عن المثقف، أين هو؟. لماذا هو صامت؟. ويُسهَّبُ في الحديث عن وظيفته، وأي دور يمكن أن يؤديه؟. وأحسب، بدءاً، أننا نُحمِلُ المثقف ما لا طاقة له به، ونفترض أنه يمتلك عصا سحرية، بما يستطيع أن يغير من اتجاه ما يحصل، وكأن المثقف ليس جزءاً من المجتمع بما يشوبه من أزمات، وهو القادر على إخراج الجميع من المأزق التي لم، ولن تنتهي؛ وننسى أو نتناسى أن هناك بدائل أخرى أقوى من المثقف اكتسحت حياتنا، ودفعت به إلى الصفوف الخلفية .

توجد في كل مجتمع شريحة اجتماعية متميزة عن باقي شرائح المجتمع، تكون مؤهلة للتأثير في ذلك المجتمع سلباً وإيجاباً وتأخذ مواقع ريادية في رسم هوية وشخصية ذلك المجتمع. كما تتحمل هذه الشريحة مسؤولية كبيرة في تحديد اتجاه تكامل هذا المجتمع نحو الرشد والنضوج في جميع مجالات حياته من خلال بثّ الوعي داخل صفوف المجتمع،

وممارسة النقد البناء والإيجابي للأفكار، والقيم، والاتجاهات الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، وغيرها وتبني قضاياها وتحديد اولوياته. هذه النخبة ليست المثقف وحده؛ بل هناك نُخب كثيرة : عسكرية، سياسية، اقتصادية، سياسية ، صحية، أكاديمية جامعية، مجتمع مدني، دينية، ثقافية.. وقد نستأنس بتعريف للمثقف أورده الفيلسوف الأمريكي الراحل إدوارد شيلر بقوله: " المثقفون هم قطاع من بين المتعلمين يسعون إلى صياغة ضمير مجتمعهم ليتجه اتجاها راشدا، ويؤثرون على القرارات الكبرى لهذا المجتمع . " السؤال الجدير بالطرح هنا، هل هذه النخبة بإمكانها أن تؤدي أدوارها التوجيهية والتنويرية وفق المواصفات السالفة الذكر في عالم متغيّر، متعدد مصادر المعرفة، وذاخر بنتائج التكنولوجيا الحديثة التي سهّلت الحصول على اصناف المعرفة يُيسر، ويلمسه زرّ. لا ننس أيضا مراكز القوى الاقتصادية والمالية التي تتحكّم في القرار السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، وتوجّه الإعلام بكل مكوّناته نحو خياراتها الممنهجة.

علينا أن نُقرّ أن دور المثقف قد بُهت في هذا العصر الذي يشهد تراجعا لإسهامات المثقفين، أو النخبة في تنمية المجتمع ، وغياب تأثيرهم الاجتماعي والثقافي في حركة الواقع المجتمعي ، فلم يعودوا قادة

الرأي العام، ولا هم بالاستشرايين للمستقبل القادم، فقد رحلت تلك الأوهام حين كانوا ينظرون لعطائهم بوصفه إنارة للطريق ومنقذا للخروج من التيه الذي قد يحلّ بالمجتمع. بكل مرارة من نصفهم بالنخبة ليس لهم حضور بارز في تحريك مجريات الأمور كما كانوا في السابق إبان التحولات المجتمعية والفكرية بل أنهم مثلهم مثل سائر الفئات الاجتماعية.

علمنا العربي والجزائري يمور بالأحداث اليومية لا أثر لنخبنا المثقفة حتى وهي في مواقع الأحداث للمساهمة في إطفاء نار الفتن، بل العجز حتى في إصدار بيان.. ناهيك عن التواجد والتأثير في التجمعات أو الملتقيات الوطنية والدولية في قضايا المال، والاقتصاد، والتربية، والصحة، والبيئة، والسياحة، وغيرها. حتى جامعاتنا منكفئة على نفسها ومعزولة عن المجتمع، لا أساتذتها - إلا القلّة - ولا طلابها المتخرجون لهم الرغبة في المساهمة في التأثير في المجتمع، أو حتى التعبير عن رأي النخب الأكاديمية الجامعية فيما يجري محليا، ووطنيا، عربيا. لا أحسب أن المثقف الذي يُدلي بآرائه، وتعليقاته حول بعض قضايا الساعة في الطلّات الفيسبوكية، أو التويتيرية، أو اليوتوبية ينتج معرفة، هي فحسب تنفيس عن الذات، وتواصل افتراضي مع الغير.

في تقديري الشخصي طالما أنّ محنة المثقف في عالمنا المعاصر هي نتيجة عدة عوامل مؤثرة بعضها من صنعه، وأغلبها ناتجة عن ظروف موضوعية تتجاوزه فإني أقرّ أن المثقف الحقيقي عليه أن لا يرفع راية الاستسلام، وذلك أولاً بالكتابة والتأليف في حقول المعرفة وفق اختصاصه، والّا ينتظر الجزاء المادي الآني ؛ والّا يتردد في الانخراط في الشأن العام ، والّا يكون بعيدا ومعزولاً عن الحراك الاجتماعي. إذ لم تعد النخب والأحزاب هي التي تصنع العالم، بل تصنعه الشاشات، ووسائل الإعلام، وثقافة الصورة، وأسواق السلع، وأسعار البورصة وآليات الربح، وأبطال الفرق الرياضية، ومافيات الضغط.

عالمُ يُمور بالأحداث المتسارعة .. المثقف العربي عنه غائبٌ ومغيّبٌ

الجدل حول المثقف لم ينته ولن ينتهي.. نعوم تشومسكي أستاذ اللسانيات والفيلسوف الأمريكي يرى أن المثقف هو: من يحمل الحقيقة في وجه القوة. والمفكر البحريني محمد جابر الأنصاري يُضفي عليه صفة موسوعية، فيصفه بأنه: من غادر حقل الاختصاص إلى ما هو أوسع في مجالات المعرفة الإنسانية، أي الإيمان بدور المثقف وقدرته.. البعض يعمد إلى تقسيم مجازٍ بين مثقف "حقيقي"، وآخر غير ذلك.. فالمثقف "الحقيقي" بناء على ذلك، هو من يرسم مصيره بنفسه.. مختاراً، وبوحيٍّ من دوره، ومهمته التي ارتأها لنفسه، غير منقاد إلا لما يؤمن به، ويدافع من أجله.

المثقف إذاً هو الإنسان المفكر أولاً، هو طليعة المجتمع فكرياً، واجتماعياً، هو الذي يثير الأسئلة، ويتبنى قضايا المجتمع وهمومه، لا يكون - انتهازياً - يقف مع هذه الجهة أو تلك، أو يبدل الدور بين عشية وضحاها، أو نفعياً ينحاز للسلطة، أي سلطة ليس بالضرورة السلطة السياسية، فقد يكون التحيز للجهوية، أو لرجال المال، أو

لشخصية ما، أو لاتجاه فكري ما ضدّ أغلبية المجتمع ! إن انحاز إلى الحق والعدل، ووقف في وجه القوة، تأكيداً ليس بالضرورة أن تسلم الجرّة دائماً كما يقول المثل العربي ؛ فقد يُقتل بإحدى طريقتين: إما أن تتم تصفيته جسدياً، أو يتم اغتيال أفكاره اجتماعياً في لعبة الصراع الفكري بينه، وبين أطراف كثيرة مؤثرة في المجتمع، أو يؤثر الاغتراب. إذا توقفنا عند تعريف تشومسكي للمثقف وهو الذي يحمل الحقيقة في وجه القوّة؛ يتبادر على الذهن السؤال التالي: أوجد أيامنا هذه مثقفون بإمكانهم توظيف الحقيقة في وجه القوة التي تفتكُ بعالمنا المعاصر، وتخلق الصراعات والحروب، والأزمات المستمرة متسببة مآسي للإنسانية سيّما في ربوع العالم العربي ؟ وهل لدى هؤلاء المثقفين من الوزن ما يجعلهم مؤثرين في عالم يصنعه المال وإغراءاته، والسياسة ومفاتها، والإعلام بكل تقنياته ووجهه، وفي صدارته الصورة التي تشكل المعرفة الإنسانية في كل لحظة ؟

في اعتقادي الشخصي أن المثقف سيّما في العالم العربي لم يتخلّ عن القيم التي آمن بها، وتشبّع بها، ودافع عنها وطنياً وعربياً؛ إنما الموازين اليوم تغيّرت لتحلّ محلها وسائط أخرى همّشت المثقف، ولا يعني هذا أننا مع أطروحة " موت المثقف " التي هي أقلّ وحشية؛ إنما

نحن مع أطروحة " انتحار المثقف إراديا واختيارا منه " .. المثقف العربي انتحر عندما ألقى بنفسه في دوامة الغموض، والبعد عن الواقع، والبحث عن مظلة إيديولوجية يلج تحت ظلها؛ فانقطعت لغة الخطاب بينه وبين السلطة من ناحية، حيث وقفت ضدّ تحقيق طموحاته ومشروعاته، سواء بتدجينه بمنصب إداري كما هو الحال عندنا في الجزائر، أو يارهابه، وإبعاده عن ساحة التأثير الاجتماعي..

والخيبة الكبيرة أن المثقف العربي رضي بهذا الدور المرسوم له، ونقصد هنا المثقف الذي يحمل همًّا معرفيا يريد به إصلاح ما يجب إصلاحه، أو حتى استشارته في العديد من القضايا المفصلية، ولذلك لم يستطع، أو يُفسح له المجال في تغيير الواقع العربي بقدر ما ساهم هذا المثقف في تثبيت دعائم هذا الواقع، وإقامة أوتاده، وإلاّ فالنفي والاعتزاز بشكليهما الجسدي، والنفسي هما البديل. واقعنا المعيش هذه الأيام والعالم العربي تفتك به الفتن الطائفية، والحروب الأهلية، وآخرها مأساة غزّة.. هذه المأساة البشعة فضحت المثقف العربي، وعرّته، وكشفت ضعفه، وانسحابه من الساحة، ولما نتكلم عن المثقف يتسع تعريفنا له كي يشمل كل من يحمل المعرفة، أو ينتجها، أو يطبقها مجتمعيا.

أين هم صنّاعها، والمنفذون لها من أساتذة الجامعات، الأطباء،
المحامين العرب، الكُتّاب العرب، رجال المال والأعمال، المثقفين
.. وغير هؤلاء؟ أين أصواتهم؟ هل نظموا احتجاجات هنا وهناك؟ هل
أظهروا أنفسهم وأبدوا مواقفهم مما جرى ويجري؟ هل أوصلوا أصواتهم
إلى المنابر الدولية، والمنظمات العالمية؟

المثقف العربي اكتفى ببيكائيات منفردة على صفحات التواصل
الاجتماعي في شكل تأسّفٍ وحسرة، أو في شكل قصائد يغرّد بها كما
غرّد بها غيره في كل نكساتنا، وهزائمنا التي تتناسل، ولا أخال أنها
ستنتهي.

المثقف العربي فقد مكانته بفعل السُّلط المختلفة التي تجاهلته،
ورضي بذلك لأنه آثر السلامة على الوقوف في وجه القوة، وتماهى مع
القيم المثالية التي يحملها، والتي لا السلط تؤمن بها ولا الجماهير
الشعبية التي تعالی عليها تسمعه .. فتخلّت عليه بدورها. الكثير من
مثقفينا المساكين قانعون بالاستكانة إلى قيم يدنونها في مؤلفات
يطمحون إلى طبعها، وإصدارها، واللهاث وراء رجال الأعمال، أو
السلط لمساعدتهم في ذلك، ثم التباهي بها أمام نظرائهم، والبعض
منهم يتلهّف على منصب إداري مرموق بمجرد أن يتحصّل عليه

ينقلب على كل المبادئ والقيم التي كان يتظاهر بها. هي الحقيقة أحببنا أم كرهنا من يصنع عالم اليوم ليس المثقف، وليس أستاذ الجامعة، ولا غير هؤلاء ممن نضمهم إلى فئة المثقفين .. من يصنعه، ويوجهه هو المال الذي تغلغل في كل مفاصل المجتمع، المال ورجاله وحدهم وراء رجال السياسة الذين بدورهم في خدمة المال.. ومن يصنع العالم اليوم أيضاً هو الإعلام بكل أطيافه وخاصة الصورة ..إعلام وراءه المال ورجاله في خدمة السياسة والمال والاقتصاد.

... مصالح مشتركة، وأدوار مختلفة في الغرب كما في الشرق .

هل عندنا جمهور ثقافي ؟

ملتقياتنا الثقافية، وندواتنا الفكرية يغيب عنها الجمهور الثقافي؛ ولا يتعلق الأمر فقط بالملتقيات التي ينظمها القطاع الثقافي، أو الجمعيات الثقافية، أو جهات أخرى محلية، ولكن حتى ما يُنظم بالجامعة، حيث جمهور الأساتذة والطلبة موجود؛ لكن هذا الجمهور لا يهتمّ عما يجري من حوله: فبعض الأساتذة يقاطع الندوة لأنه على خلاف مع بعض أعضاء اللجنة المنظمة، والطلاب لا علاقة لهم إلا بالدروس للحصول على العلامات. في الجامعة وهذا ما لمستته في العديد من المرات أن أساتذة وطلبة كلية الآداب لا يحضرون ملتقى، أو ندوة تنظمها كلية العلوم الاجتماعية، وبالمقابل لا يحضر هؤلاء ملتقى، أو ندوة تنظمها كلية الآداب وكلا الكليتين متجاورتان في نفس الجامعة.

بل في الجامعة بمجرد أن تتمّ مراسيم الافتتاح، وتبدأ الجلسات العلمية يبقى في القاعة غير المحاضرين الذين أغلبهم غايتهم الحصول على شهادة المشاركة للاستفادة منها في الترقية، أو الطلبة الذين عادة ما يحضرون تلبية لأمر أستاذة، أو أستاذ الاختصاص. نحضر اليوم

ملتقيات ثقافية في هذه الولاية، أو تلك لا نجد أثرا للجمهور الثقافي من المجتمع، تنظمها هذه الهيئة أو تلك، وكم يشقى منظموها في توجيه الدعوات، والاتصال بمن يروُن أنهم أهلٌ للحضور، وفي غالب الأحيان يكون الحضور مخيبًا للآمال.

أذكر أن المحاضرة، أو الندوة في السبعينيات، وحتى الثمانينيات في قاعة الموقار، أو في قاعة النفق الجامعي، أو قاعة اتحاد الكتاب الجزائريين، أو فروعها خاصة فرع وهران، وقسنطينة، وكذا المركز الثقافي الإسلامي، أو في جامعة الجزائر المركزية كانت القاعات تضيق بالجمهور من أطراف متعددة من المجتمع؛ كما كان الطلاب يتسابقون على المقاعد مع الأساتذة، والجمهور أيضا من خارج الجامعة يظل فارضا حضوره حتى انتهاء المناقشة، أو المحاضرة.

في السنوات الأخيرة وحتى في أيامنا هذه تنظم هذه الجامعة، أو تلك ملتقى يتعلق بالشعر، أو بالسرد، أو المسرح، أو بالنقد، أو ما يتعلق بالإبداع الأدبي فلا تستدعي أي مبدع من خارجها، ومن يحضرون من المبدعين قد يكونون أساتذة، وما هو مؤكد أن الطلبة فيهم من سلكوا درب الإبداع، ولهم مواهب وبإمكان الجامعة اكتشافهم، ورعايتهم، وإبرازهم في هكذا ملتقيات، ولكن لا يُلتفت

إليهم؛ والعكس أن الملتقيات التي ينظمها القطاع الثقافي مركزيا، أو محليا لا يحضرها أساتذة الجامعات، ولا يُوصون الطلاب بحضورها حتى يبرزوا، ويشاركوا في الفعل الثقافي في المجتمع، ومنهم سيتكون الجمهور المثقف الذي يُعَوَّل عليه مستقبلا؛ حتى النوادي الأدبية بأغلب الجامعات اختفت. قد يقول قائل : غياب الجمهور الثقافي من الساحة يعود بالدرجة الأولى إلى انتشار وسائل المعرفة الحديثة التي صار في إمكان الكبير والصغير، المتعلم والمثقف، الطالب والأستاذ الحصول عليها من مصادرها، وبأسرع وقت، ولا حاجة لهكذا ملتقيات وندوات، ومن ثمة يرى عدد من المثقفين أن هذه الملتقيات الأدبية فقدت قيمتها وأهميتها، ولا أمل منها في التأثير على المشهد الثقافي؛ كما أن العديد من هذه الملتقيات هي تكرار مُملٌ لبعض المواضيع والوجوه، التي همّها في الحضور على المتعة السياحية أكثر من ممارسة الثقافة في الملتقى، كما أن تلك الملتقيات هدرٌ للمال، الذي من الأجدى صرفه ففي حاجات اجتماعية؛ كما أن التوصيات التي تخرج بها تلك الملتقيات كل عام مكررة، ودون متابعة لتوصيات الملتقيات التي سبقتها، ودون أن يحمل هم تنفيذ التوصيات الجديدة.

يبدو لي أنّ الجمهور الثقافي يأتي نتيجة التربية والتكوين، فالمنظومة التربوية منها تبدأ صناعة الجمهور الثقافي، من غرس حبّ المعرفة، والتدريب على مهارات القراءة والمطالعة منذ السنوات التعليمية الأولى، وكذا استثمار حصص التنشيط في الاستماع إلى الإبداعات الشعرية، والسردية، والمسرحية، والتنافس الثقافي بين المؤسسات، لتكتمل صناعة الجمهور الثقافي في رحاب الجامعة، ضفّ إلى ذلك أن العديد من القطاعات من مهامّها المشاركة في هذه الصناعة كالمجتمع المدني بكل مكوّناته، سيّما الأحزاب. السبب الأهمّ في رأيي عدم وجود استراتيجية أو رؤية وطنية شاملة للثقافة، لا يوجد عندنا مشروع ثقافي قومي مؤسس لثقافة وطنية. لا نعجب لما نجد المواطن العادي ينظر إلى الثقافة على أنّها فعل فلكلوري، وتبذير للمال العام.. كيف يمكن إقناع هذا المواطن بأن الثقافة معرفة، وتنوير، وسلاح للرقى.

النشر في المواقع الاجتماعية .. مُسكِّنٌ أَنِيٌّ خَادِعٌ للمفكر والمبدع

منذ أكثر من نصف قرن العلامة البشير الإبراهيمي بذكائه الخارق وحده البعيد استخلص أن المثقف العربي، والجزائري يتصف بصفات منها التخاذل، والانسحاب من معترك الحياة، والانزواء بعيدا ، وعدم مشاركة الناس قضاياهم اليومية إن في شكلها اليومي المعتاد، أو في قضاياهم الكبرى. صيحة الإبراهيمي كانت قبل الثورة التحريرية، وقبل الثورة التكنولوجية المعاصرة التي فتحت فضاءات متنوعة أمام المثقف كي يحتكَّ بمجتمعه، ويقترّب من أفراده ومجموعاته المتنوعة. يبدو وأن صيحة الإبراهيمي لا تزال تثقل بكلكلها المثقف .. ما الفرق يا تُرى بين المثقف الذي يستنهضه، وبين مثقف اليوم الذي لا ظلَّ له، ولا صدَى:

«على المثقفين الامتزاج بالأمة، والاختلاط بطبقاتها، والتحبّب إليها، ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية، والدخول في مجتمعاتها ومعابدها، ومشاركتها في عباداتها، وفي الصالح من عوائدها... وثقة الأمة بمثقفها هي رأس المال لإنجاز المشروع الحضاري.»

هل مثقف اليوم بمقدوره القيام بهذه المهام الثمانية التي حدّدها الإبراهيمي قبل أكثر من نصف قرن ؟ واقعياً المثقف المعاصر لو يتمكّن من القيام بالعنصرين الأولين فقط لكان من الرّواد.. أغلب مثقفينا تركوا الساحة لغيرهم، ففقدوا مكانتهم في المجتمع لأنهم تعالوا عن المجتمع، وتكبّروا على أفرادهم، وانعزلوا بدعوى " السلامة " ولكنه الجبن المقيت..

المجتمع يعجّ بالحياة وبالحرّكية المتسارعة، وما أكثر القضايا الوطنية والجهوية التي من المفترض أن تكون للمثقف كلمة مسموعة فيها، أين نقابات التربية في قضايا الوطن الأهم من الإضرابات ؟، أين نقابات المحامين ؟ الأطباء ؟ المهندسين المعماريين ؟ أساتذة الجامعات ؟ الأئمة ؟ النخب ؟ أين مثقفو الأحزاب موالاة ومعارضة ؟ أين اتحاد الكتاب ؟ أين الفنانون التشكيليون ؟ أين اتحاد المترجمين ؟ أين...؟

طالما أن هذه النخب المثقفة استقلت من مهامها كنخب للتنوير والقيادة والمبادرة، والمجتمع بدوره أعرض عنها؛ فإن ما تبقى منها من مفكرين ومبدعين لجأت إلى مواقع التواصل الاجتماعي علّ العلاقة تكون أفضل، فكانت بقدر ما كانت هذه المواقع مغرية وجذّابة

للمفكر والمبدع؛ إلا أن قراءة أعماله وتقديرها، وتثمينها كان في أحسن الأحوال من عدد قليل ، وعادة ما يكونون أصدقاء.

قد يتساءل هذا المبدع، أو ذاك الكاتب حينما يطفو عدد أصدقائه أمام عينيه وقد يكون بالمئات، أو بالآلاف فلا يجد من يتصلون به، أو يعلقون على ما يكتب، أو حتى يبدون الإعجاب لا يزيد عن العشرين أو الأربعين.. بينما هذه المئات وتلكم الآلاف تتهافت على ما ينشره الرياضيون والفنانون والفنانات من أقوال، وتصريحات وأحاديث عادة لا تحمل فكرا راقيا، ولا لغة سلسلة فيها من الجمال والذوق ما يربي ويسمو بالسلوك الإنساني الراقى.

يبدو لي أن المثقف اعتلى غيرُه المنابر المؤثرة في المجتمع، وترك الساحة لهم منذ زمان وليس من الآن، فالنشر على المواقع الاجتماعية أملتَه الظروف الحياتية المستجدة، بصراحة هو مسكّن خادع للمثقف على أنه لا يزال موجودا، يمارس رسالته الريادية في عصر تكالب فيه الكلّ على الرفاهية المادية، وصار النموذج ليس المثقف، أو المفكر، وإنما " البنزس " السياسي، والمالي الذي يتحكّم في كل شيء، ويدير دقّة الحياة التي " تكرر " وراءها الجميع بما فيها المثقف، والمفكر، والفيلسوف، والكاتب المبدع.

الكاتب الجزائري لم يتخلّ عن رسالته

في رأيي الشخصي توجد علاقة متينة بين اكتمال ثقافة الكاتب، ومستوى وعيه لما يجري حوله اجتماعيا، واقتصاديا، وسياسيا، وثقافيا، لا كفرّد حيادي راصد فقط لما يجري؛ إنما كعنصر فعّال وفاعل، انطلاقا من مدى اقترابه من الفهم الصحيح للعلاقات، والصراعات والمشاكل المعاصرة له محليا وإقليميا ودوليا، وتأثيرات العولمة التي تغلّغت في شتى مجالات حياتنا .. ومدى استفادته - أي الكاتب - من التراكم المعرفي الذي استعصى على أي مثقف اليوم ملاحقة ما يُبيّث وما يُذاع وما يُنشر.. هي كلها عوامل من الأهمية بمكان تدفع المثقف الكاتب، بجعل كتابته ذات قيمة وذات تأثير، إذ كيف أكتب عن مجتمع دون الغوص في أعماقه ومعايشة انشغالاته، ودون تفهّم لمشاكله؟

في الجزائر ومنذ الاستقلال ظهر على الساحة كُتّاب، ومبدعون ذوو مستوى عالٍ سواء في الأجناس الأدبية، أو في كل مجالات المعرفة، وما كتبوه، ونُشر خاصة قبل التسعينيات من القرن الماضي، وما أدّوه للمشهد الثقافي الجزائري قبل ظهور الوسائط التكنولوجية الحديثة،

ونجحوا في التفاعل مع واقع المجتمع الجزائري، والتعبير عن واقعه، وتشخيص الاختلالات به، وما دعم ذلك نسبة المقروئية التي كان الكتاب أداؤها الفعالة.

منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي برز جيل جديد من الكتاب عاشوا، ويعايشون التحوّلات المتسارعة في المجتمع الجزائري، راصدين لها ومعبرين عنها كلٌّ في مجال تخصصه.

ولستُ مع القائلين بأن الكاتب الجزائري بعيد عن واقع مجتمعه، ويعيش في برج عاجي؛ إنما المعطيات تغيّرت، إذ لم يعد الكاتب هو مصدر المعرفة، بل فقد وظيفته المعرفية التأثيرية مثلما فقدت المدرسة والجامعة وظيفتهما.

من يزور معرض الجزائر الدولي السنوي، وكذا معارض الكتاب الجهوية، أو الولائية يفاجأ بالإصدارات الجديدة كل سنة للكُتاب والمبدعين الجزائريين في كل التخصصات، وما تتضمنه العديد من العناوين لا يخرج عن رهن المجتمع الجزائري؛ إنما وقد سيطرت مصادر معاصرة فيها من جاذبية العرض، وكثافة المعارف، وتسارع نشرها بالصوت والصورة، طرح إشكالية تدني المقروئية في الجزائر؛ بل والعزوف عنها، وكساد الكتاب الورقي، ومنافسته من قبل الكتاب

الرقمي. عوامل زحزحت موقع الكاتب إلى الخلف. وصل بنا الحال في بلدنا إلى أن يفتخر المعلم، والأستاذ، وحتى الأستاذ الجامعي إلى أمام أصدقائه بأنه طوال السنة لم " يكسّر رأسُ " بقراءة كتاب أو مجلة، أو حتى صحيفة ما عدا ما يحتاج إليه في عمله التدريسي.

نعوم تشومسكي أستاذ اللسانيات والفيلسوف الأمريكي يرى

أن المثقف: « هو من يحمل الحقيقة في وجه القوة. »

إذا توقفنا عند تعريف تشومسكي للمثقف - أي المثقف الكاتب

المنتج للمعرفة - وهو الذي يحمل الحقيقة في وجه القوة؛ يتبادر إلى

الذهن السؤال التالي :

(أوجد في أيامنا هذه مثقفون بإمكانهم توظيف الحقيقة في وجه القوة

التي تفتك بعالمنا المعاصر، وتخلق الصراعات والحروب، والأزمات

المستمرة متسببة مآسي للإنسانية سيما في ربوع العالم العربي ؟.

وهل لدى هؤلاء المثقفين بكتاباتهم، ومواقفهم من الوزن ما

يجعلهم مؤثرين في عالم يصنعه المال وإغراءاته، والسياسة ومفاتها،

والإعلام بكل تقنياته ووجهه، وفي صدارته الصورة التي تشكل المعرفة

الإنسانية في كل لحظة. ؟

• • وخير جليس

كُتِبُ احْتَفْتُ بِهَا الذَاكِرَةُ.. أُرْسْتُ

مسار حياتي المعرفي والإبداعي

عَصِيٌّ عَلَى الْمَرْءِ الَّذِي تَمَاهَى مَعَ الْفِعْلِ الثَّقَافِيِّ مُتَلَقِّيًا، ثُمَّ مَبْدَعًا وَمُنْتَجًا مَعًا مَدَّةَ نِصْفِ قَرْنٍ أَنْ يَجِدَّ بِدَقَّةِ الْكُتُبِ الَّتِي تَغْدَى مِنْهَا مَعْرِفِيًا، وَتَأْتُرُ بِمَا حَفَلَتْ بِهِ، ذَلِكَ أَنْ الْكُتُبَ كَالْفَاكِهِةِ النَّصْرَةِ الْجَمِيلَةِ اللَّذِيذَةِ الَّتِي بِقَدْرٍ مَا تَتَنَوَّعُ حَسَبَ الْمَوَاسِمِ، وَالْفُصُولِ تَتَنَوَّعُ فِي نَكْهَتِهَا، وَلَوْحَهَا، وَطَعْمِهَا.. هَذَا التَّنَوُّعُ لَا يَبِينِي أَنْ يَتَرَسَّخَ فِي الذَّاكِرَةِ، كَمَا مِنْ خِلَالِهِ يَتَغَدَّى الْبَدَنُ، وَتَصَلِبُ الصَّحَّةُ.. الْكُتُبُ هِيَ كَذَلِكَ.

لِلْكَتُبِ ذِكْرِيَاتُهَا الْجَمِيلَةُ مَعَ كُلِّ قَارِيٍّ، وَلَا تَتَوَقَّفُ تِلْكَ الذِّكْرِيَّاتُ مَعَ الْكِتَابِ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا تَصِلُ حُدُودَ الذِّكْرِيَّاتِ إِلَى أَعْبَدِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ ارْتِبَاطُهَا بِالْأَحْدَاثِ الزَّمْنِيَّةِ.. بِالْأُمُورِ النَّفْسِيَّةِ.. بِالْمَشَاعِرِ.. بِالْمَرْحَلَةِ الْعَمْرِيَّةِ.. بِالْأَوْقَاتِ الثَّمِينَةِ الَّتِي أَمْضَيْتُ مَعَ الْكِتَابِ، رَبَّمَا مَعَ مُشَارِكِينَ آخَرِينَ فِي الْقِرَاءَةِ. إِلَّا أَنَّ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ هُنَاكَ كُتُبٌ يَكُونُ لَهَا وَقْعٌ كَبِيرٌ عَلَى عَقْلِ الْقَارِيٍّ، وَتَتْرِكُ بِصِمَاتِهَا فِي الذَّهْنِ، وَقَدْ تُحْدِثُ تَغْيِيرًا فِي شَخْصِيَّتِهِ... وَلَعَلَّنِي بِحُكْمِ الظُّرُوفِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِتَنْشِئَتِي زَمَنِ الْاِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ لِلْجَزَائِرِ، أَنَّنِي

لم أنتمِ لأي مؤسسة تعليمية فرنسية، ولا لأي مؤسسة تعليمية عربية لانعدامها أصلاً؛ فقد كان " الكُتّاب " المؤسسة الوحيدة التي احتضنتني، وارتويت من روضها الطاهر؛ فما أن انهيت سنة الإحدى عشر سنة من عمري حتى حفظت القرآن الكريم كاملاً، وصلّيت به التراويح في ذلك العمر في شهر رمضان بالجامع الكبير أمام العشرات من المصلين.. الكتاب الأول الذي أثر فيّ، وترك بصماته في عقلي، ووجداني إلى اليوم هذا الكتاب السماوي الربّاني، والذي منه رُضعت اللغة العربية نقية، واكتشفت أسلوبها العذب، ولا أحسب أنني أفضل كتاباً آخر بشرياً عنه.

وما أن انتسبت إلى سلك التربية والتعليم في منتصف الستينيات حتى بدأت علاقتي بالكتاب قوية، ولا أزال أذكر أن الكثير من العناوين التي اطلعت عليها وقرأتها بمتعة، وأنا الجوعان للقراءة وتحصيل المعرفة، من هذه الكتب: عيون البصائر الشيخ البشير الإبراهيمي، مقدمة ابن خلدون، حديث الأربعاء بأجزائه الثلاث لطف حسين، كتب المنفلوطي، كل ما كتبه جبران خليل جبران، البؤساء لفكتور هيجو، روايات ألبرتو مورافيا، مسرحيات شكسبير، روايات نجيب محفوظ، قصص يوسف السباعي... لتتوالى القراءات فيما بعد

للأدب الجزائري القديم، والمعاصر، وللفكر الجزائري المعاصر: مالك بن نبي، عبد الله شريط، سعد الله، أبو العيد دودو... ومن الكُتّاب الذين أثروا في كثيرًا خلال بداياتي الكاتب المهجري جبران خليل جبران؛ إذ ذات يوم في نهاية الستينات وجدت لدى صديق لي عزيز، وهو فتان تشكيلي، وخطاطٌ يعشق الأدب والجمال حينها، بعض كتب للكاتب جبران منها: كتاب النبي، الأرواح المتمردة، الأجنحة المتكسرة، دمعة وابتسامة.. كان هذا الصديق متأثرًا بجبران الكاتب الرومانسي، الرسام الفيلسوف، الشاعر الألمعي، ارتأى الصديق أيامها أن نقرأ بتمعنٍ كتابات هذا الفيلسوف، وليكن الكتاب الأول (العواصف)، والذي تضمّن واحداً وثلاثين نصًّا.. أتساءل وقد مرّ على هذه القراءات ما ينيف على الخمس وأربعين سنة لِمَ اخترنا هذا الكتاب قبل غيره من كتب جبران، وقرأنا نصوصه بمتعة، وحميمية، ومن خلالها أحببنا جبران، وعشقنا كل نصوصه الإبداعية شعراً ونثراً؟ الآنّ هذه النصوص تتحدث عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ونحن كجزائريين تجرّعنا الظلم مدى قرون، ولا زالت نفوسنا حينذاك تتنّ من ظلم الاستعمار؟ أم لجمالية الأسلوب الجبراني، أم لصرخة هذا الكاتب

الطلائعي في وجه الطغاة لفك القيود عن إخوانهم من البشرية، والكلّ
بنو آدم ؟

ففي نصّ العبودية يستصرخ جبران الضمائر الميتة في العالم
العربي ، ومنذ 1914، أي قبل قرّن تحديدا، كي تنفض عن نفسها ذلّ
العبودية التي أثقلت البشرية بكلّكلها منذ آلاف السنين، وجعلت
أيامهم معتمّة بالذلّ والهوان، ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع، وياليتّه
علم حينذاك أنّ الهوان والذلّ، والدماء والدموع ستستمر في هذه
البقعة من المعمورة، وأن مواكب الأمم الأخرى إلى الصروح
سيتضاعف سيرها، ومواكبنا تتصارع، وتتنافس على الفئات:

« أيها الناس عبید الحياة، وهي العبودية التي تجعل أيامهم مكتنفة
بالذلّ، والهوان، ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع... »

ومن نصّ " يا بني أمي " :

« ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

أريدون أن أبني لكم من المواعيد الفارغة قصورا مزخرفة بالكلام،
وهياكل مسقوفة بالأحلام؟ أم تريدون أن أهدم ما بناه الكاذبون
والجبناء، وأنقض ما رفعه المرأون والخبثاء ؟ »

كتاب: دمة وابتسامة: كتبه جبران بالعربية، وفيه مجموعة قصائده
النثرية، وهي تعبر عمّا في فكر جبران، ونفسه من خلجات وتأمّلات
في الحياة، طافحة بالإيمان والحب والأمل.
يدور الكتاب حول موضوعات أربعة: المجتمع، والطبيعة، الحب،
الوجود، يبين فيه جبران فساد المجتمع، وما فيه من ظلم واستغلال
وطمع وفقر، ويرى أن الطبيعة تمثل الخير والطهر والكمال.
هي طائفة من الكتب التي طالعتها، فأكبرتها وأعجبت بها أيما
إعجاب وتركت في النفس آثاراً، ولا أزال أنهل ممّا يجود به الفكر
البشري محلياً وعربياً، وإنسانياً..

كتاتيب القرآن الكريم.. وعِبْق التاريخ

أُدخِلْتُ وأنا صبي لا يتجاوز عمري الخمس سنوات الكُتّاب ببلدتي الصحراوية في منتصف الأربعينات من القرن الماضي.. بلدتي كسائر البلدات الجنوبية، وكل ربوع الجزائر التي منع فيها الاستعمار الفرنسي تعليم الحرف العربي، وُجدت ببلدتي تاريخ ذاك غير مدرستين: الأولى أنشأها الاستعمار الفرنسي سنة 1907 لتعليم أبناء الفرنسيين من موظفين ومدرسين، وأبناء بعض الجزائريين القلّة المتعاملين معه في البداية، والمدرسة الثانية هي مدرسة النجاح التي أنشئت سنة 1939 من طرف الأهالي وكان يدرّس بها أساتذة من نفس البلدة درسوا بجامع الزيتونة بتونس ثم عادوا إلى مسقط الرأس، يدير المدرسة حينذاك الشيخ المرحوم العلامة محمد الطاهر تليلي.

أذكر أن المدرستين كانتا تضمّان نفس التلاميذ، إذ أولياؤهم ممّن هم في مستوى معيشي مقبول، ولا يحتاجونهم كي يكونوا جانبهم في أعمال الفلاحة، أو التجارة، فكانوا يستفيدون من المدرسة الفرنسية، ومن المدرسة العربية التي كانت برامج مدارس جمعية العلماء، وبطبيعة الحال فإن خريجي المدرستين وجدوا أنفسهم

بسهولة في أسلاك الوظيف بعد الاستقلال، وفي مواقع المسؤولية؛ وللأمانة التاريخية فإن كانت هذه العائلات قلة من التركيبة السكانية بالبلدة، فإنها كانت على علاقة متينة مع السلطات الفرنسية حتى خلال الثورة التحريرية.

البقية من السكان الذين يشكّلون الأغلبية، ولا موارد رزق لهم غير ممارسة الفلاحة الصعبة كزراعة النخيل والتبغ، وهي أقرب إلى الفقر منها إلى الكفاف بعضهم لم يتمكن من تعليم أبنائه لا في الكُتاب، ولا في المدرسة، والبعض الآخر وجه أبنائه نحو التعليم القرآني في الكتاتيب التي كانت منتشرة في كل مساجد البلدة، والزوايا من معلمي قرآن وأئمة كلهم متطوعون.

مما أذكره أن السلطات الفرنسية في الأربعينات من القرن الماضي سعت بكل الوسائل لضمّ أبناء هذه الطبقات الفقيرة للمدرسة الفرنسية بالبلدة، البعض استجاب خوفاً مُكرهاً، والأغلبية هربت أطفالها، وغيبتهم بعيدا حتى لا يراها أعوانها، ومما أذكره أن شيخ البلدة المساعد لـ " قائد المدينة " وممثل السلطات الفرنسية طلب من والدي رحمه الله توجيهي نحو هذه المدرسة، فبعضوية الجزائري الأصل الأمي والمتشبع بالروح الدينية البسيطة، والذي لا يريد لابنه تعلم لغة

المستعمر، هربني من البلدة وغيّبي مدة أسبوع كامل في أطرافها
الفلاحية البعيدة، وشيخ البلدة يبحث عني وعن أمثالي دون جدوى،
ووالدي مُصرٌّ على عدم انضمامي إلى المدرسة، وقال قولته التي لم،
ولن أنساها:

« لن أدخل ابني مدرسة ستُخرجه لي كافرا فيما بعد»

كسائر أبناء بلدي الفقراء انضمت إلى الكُتاب في سنِّ
مبكرة، وكان التعليم تقليديا يُكتفى فيه بتعليم الكتابة، وتلقين القرآن
الكريم دون زيادة، وكما قال العلامة ابن خلدون: « فأما أهل المغرب
فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء
المدرسة بالرّسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون
ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه،
ولا من شعر، ولا من كلام العرب، إلى أن يحدق فيه، أو ينقطع دونه،
فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة.»

ومّا أذكره أن معلمي الأول " الطالب " رحمه الله، والذي
واصلت معه حتى سورة " يوسف " له سلوكات غريبة منها أنه في
الحصة الصباحية يخصص نصفها الأول إلى تلقين الصغار الحروف

والحركات بالإيقاع الصوتي الجماعي، وسماع ما حفظ الكبار ممّا أملاه عليهم وكتبوه في نفس الصبيحة، أو بالأمس.

أمّا النصف الثاني فيكلف الكبار بتحفيظ الصغار السور القصار، وينتقي ثلاثة صبيان أو أربعة، اثنان يكلفهما بتدليك ساقيه اللذين يكون مدهما عن آخرهما فيتعاون الصبيان، أو يتكفل كل واحد بساقٍ، وممّا يتعب الاثنان يحلّ محلّهما الصبيان الآخرون؛ وممّا تكتمل حصة التدليك، أو " المسند " كما كُنّا نطلق عليها ينتقي " الطالب " أحد الصبيان الغير الأربعة، ويكون قد بسط على ركبتيه برنوسا ل " التصدير "، أي زخرفة حواشيه بخيوط ذهبية، إذ هو يخيّط والصبي يدخل الخيوط التي تكون موزعة بين أصابع يديه بطريقة فنية لتشكّل الأيقونة التي يرغبها " الطالب " ..هي ذكريات رغم ظروف الفاقة تركت بصماتها الجميلة

في أيامنا هذه تنوّعت وسائل تعلّم، وحفظ القرآن الكريم بفضل التكنولوجيات السمعية البصرية من حيث تقريب الفهم، والدّربة على الحفظ، والأداء الصوتي من ترتيل وتجويد.

إلا أنّ هذا ليس في متناول الجميع. في أيامنا هذه المدارس القرآنية في المساجد، أو المنشأة مستقلة من طرف المواطنين، أو

المدارس القرآنية بالزوايا لا تزال تؤدي وظيفتها، بل تدعّمت وكثرت، وتضاعف الإقبال عليها في الأرياف، والبوادي، ومدن وبلدات الجزائر العميقة، وطريقة التعلّم بها، والتحفيز لم تتغيّر كثيرا فلا تزال اللوحة، والطين، والسمق، وقلم القصب الأدوات الرئيسة؛ وما تغيّر حسب ما ألاحظه من خلال أحفادي أن طريقة التحفيز تغيّرت بعض الشيء.

من ذلك أن معلمي القرآن المتمرسين، والصبورين اختفوا، وحلّ محلّهم شباب إمّا متطوّعون، أو أئمة شباب متخرّجون من معاهد التكوين لا يكلّفون أنفسهم عناء مع الصبيان حيث يكلّفون الصبيان الكبار بنسخ ما يحدّدونه لهم من المصحف في منازلهم على اللوح ويحفظونه، وفي الغد يعرضونه عليهم للتقييم والتقويم، وأمّا الأطفال الصغار فيتكفل بهم هؤلاء بعد عرض ما حفظوه.

.. وتبقى معارض الكتاب منبعاً للفكر والثقافة

في تقديري الشخصي، وقد يشاركني الكثيرون في هذا بأنّ معارض الكتاب تلعب دوراً ثقافياً، وفكرياً مهماً، أصبحت بفضلها بمثابة مهرجانات ثقافية ينتظرها المثقفون، والكتاب، والمبدعون، وكذا شريحة كبيرة من المجتمع بشغف، إذ إنّها تحتفي بالفكر ورواده، وهي فرصة حقيقية لتلاقي الأفكار وتبادلها. وتحفل أغلب دول العالم بما في ذلك الجزائر بمعارض الكتاب سوى جهويا، أو وطنيا، وعلى رأس هذه المعارض، المعرض الدولي للكتاب السنوي الذي نعيش فعالياته هذه الأيام.

لا شك أن الجميع يستشعر من خلال هذه المعارض أهمية الثقافة، والاطلاع على مستجداتها، وأهمية الكتاب والقراءة، إذ إنّ إقامة المعارض تحفظ للكتاب قيمته، وأهميته ودوره البارز في تطور الإنسان وتعلمه.. والحفاظ على وهجه القديم من خلال الاقتناء والقراءة، خاصة وأنه مكانة الكتاب اهتزت كثيراً بعد التطور التكنولوجي، وظهور الإنترنت والكتاب الإلكتروني، الأمر الذي أجبر كثيراً من القراء على هجر الكتب، والتوجه إلى تلك التقنية

الإلكترونية. وحفاظا على الكتاب كوسيلة معرفية، وكحامل للحضارة الإنسانية، وكنوز المعرفة؛ فإن معارض الكتب ستبقى مهمة بشكل كبير لنشر الكتاب وتوزيعه، والتحسيس بأهمية القراءة، وضرورة اقتناء الكتاب في شتى مناحي الفكر، وهذا ما لاحظناه، ونلاحظه في معارض الكتب، سيّما المعرض الدولي، فالإقبال كبير على الكتب العلمية والتقنية، والمدرسية من قبل الطلاب الجامعيين، وتلاميذ كل المراحل المدرسية؛ بل حتى الأولياء يرافقون أبناءهم للاطلاع على ما في المعارض، ومساعدة أبنائهم في اقتناء الكتب التي يحتاجونها، ولا تسأل عن المثقفين، والكتّاب، والمبدعين في هذه المعارض التي يعتبرونها فرحا سنويا، فرصة للقاءات، وندوات فكرية، وحضور محاضرات قد يكون ضيوف شرفها قامات فكرية وطنية، أو عربية، أو عالمية.

حقاً نحن لا ننفي أن الكثير من العناوين المعروضة عُرضت سابقا؛ ومنها ما أعيدت طباعتها، وقد يحملها المحتاج إليها من الإنترنت بسهولة، ولا يكلف نفسه الذهاب إلى المعارض، كما لا يدفع سنتيما واحدا. كما أن هذه المعارض تحوّلت إلى سوبرات تجارية لدى الناشرين كسائر السوبرات التي تبيع الموادّ الغذائية. وقد نتفق على أن نسبة كبيرة من المجتمع لا تملك الحاسوب، ولا تحسن استعماله، وبالتالي لا

تستفيد من خدمات الشبكة العنكبوتية؛ وحتى الذين يستفيدون من هذه الشبكة، ويحملون الكتب الرقمية منها يُقرّون بأن قراءتها من الشاشة مرهقة، وتخلو هذه القراءة من مرافقة كاتب النصّ، وكذا فقدان متعة القراءة.

صحيح أن غالبية الشباب والمثقفين يتناولون المعلومات ويتلذذون بالقراءة من صفحات الإنترنت، والمجلات، والصحف الإلكترونية، ويقضون جلّ أوقاتهم في تحميل النسخ من الكتب الصادرة حديثاً، إلّا أنه مهما وصلت إليه تلك التقنيات من تطوّر فستبقى القراءة من الكتاب الورقي هي المحبّبة، والأقرب للنفوس، والأكثر متعة وإثارة، وسيدوم البقاء للكتاب الورقي كونه المصدر الأساسي، والمرجع الرئيس الذي يعتمده الباحثون في دراساتهم وأبحاثهم؛ كما أن الكتاب الورقي في متناول الجميع، تستفيد منه كل شرائح المجتمع صغاراً وشباباً، وكباراً.

أمّا الكتاب الإلكتروني فإن كبار السنّ، وضعاف النظر، والذين ليس لهم رغبة في التعامل مع الحاسوب، أو فشلوا في تعلّم تقنياته يبقى لديهم الكتاب الورقي المصدر العلمي والثقيفي، والتعليمي الرئيس؛ إذ التوثيق لا يكون إلّا بالمصادر الورقية المعتمدة، والكتب المدقّقة

والمُحقِّقة؛ كما أن الكتاب الإلكتروني قد يفتقد إلى المعايير الأخلاقية، ممّا يساعد على نشر الكتابات الرديئة، والمستوى الفكري والثقافي المتدنيّ، وفسح المجال للمقتبسين، ولصوص الكتابة.

معرض الكتاب الدولي بالجزائر، والذي يُقرّر أغلب الناشرين العرب أنه من أنجح المعارض في العالم العربي من حيث المبيعات، ومن حيث وعي زوّاره، واقتنائهم لنوعية الكتاب، كما أنّ المثقفين والكتّاب والمبدعين يرونه عيداً سنوياً فريداً من نوعه، واعتراف العديد منهم أنّهم في كل سنة يتتبعون عشرات العناوين من الكتب الفكرية والإبداعية الصادرة عن عدة دور نشر عربية معروفة بعراقتها، بما فيها آخر ما صدر بالجزائر إلاّ أن هذه الكتب المُبتاعة يدور عليها الحول، ولا يتمكنون من تصفّحها، وتُضاف إليها عناوين أخرى كل سنة، وتلقى نفس المصير. الرأي عندي، أن أهمّ هدف لمعارض الكتب يجب الالتفات إليه، هو السعي في صناعة المثقف الواعي، والنجاح في استقطاب الجمهور الواسع من كل الشرائح، ليس للفرجة، والتسوّق البريستيجي، إنّما لتوسيع الوعي بأهمية دور القراءة، والتثقف المستمرّ؛ ولن يتحقق هذا إلاّ بواسطة الكتاب الذي سيبقى دوماً أحسن، وأوفى صديق.

الأدبُ نبضُ الوجدان

الأدب متعة وإثراء معرفي

يستمد الأدب أهميته من وصفه للواقع والإضافة إليه، أي تجاوزه التحليل إلى القيمة المضافة، من خلال تقديمه نماذج متباينة من آليات التفكير، سواء على صعيد الفرد أو المجتمعات، وذلك في إطار حدث ما. والأدب الرفيع أو الكلاسيكي يعادل أعلى فرص للتعليم، كما توفر للفرد فرصة التعرف على العالم خارج إطار ذاته، ليتنور فكره ويحظى بفرصة محاكمة الأشياء، من خلال منظوره وفهمه الغني للحياة.

يقدم الأدب للقارئ، المتعة العميقة التي تتمثل في إغناء حياته على الصعيدين المعنوي والروحي، وإضفاء المعنى الشامل الذي يتجاوز تفاصيل حياته اليومية. ويعيدنا الأدب إلى قصص التاريخ، والملاحم والكتب المقدسة والأعمال الكلاسيكية القديمة والحديثة، من خلال الشكل الأدبي الذي يتضمن اللغة وثقافة مرحلة الحدث. إن الأعمال الأدبية التي خلدها التاريخ خصوصاً للكاتب الروسي ليون تولستوي بمثابة مرشد للمثل والقيم الإنسانية، التي من خلالها يفهم الإنسان حياته وحياة الآخرين.

كما تتيح له الفرصة لإلقاء نظرة عميقة على أوجه الحياة المختلفة. وعليه فإن الأدب قادر على تغيير رؤية الإنسان للحياة، سواء من خلال ما حققه الأدباء من إنجازات قيمة ساهمت في الارتقاء بثقافة ومفاهيم المجتمع، أو عبر سيرهم الذاتية في الأدب الواقعي، والتي تلقي الضوء على تجاربهم المميزة التي تضيف إلى تجربة الإنسان وثقافته (1)

وفي المحصلة، فإن الأدب مرآة لكل زمان ومكان، فما كتب في التاريخ غالباً من باب قوة سياسية وتوجهاتها، وأما الأدب فهو مرجع أصدق وأغنى لمعرفة أحوال الناس وشؤونهم في مرحلة زمنية ما. وهكذا فإن محتوى الأدب، أبعد من مضمونه الأدبي المرتبط بمعاني الكلمات وجماليات التعبير والصيغة، فهو بمثابة الأسس التي تغني الحياة وتضيف لها. الدكتورة زياد الحكيم في موضوع لها بعنوان: " لماذا ندرس الأدب؟" ترى أننا نستفيد من دراسة الأدب وتلقي نصوصه باعتباره شكلاً فنياً تعبيرياً :

« الأدب من حيث هو شكل فني يترك أثراً نفسياً وأخلاقياً وفكرياً واجتماعياً عميقاً في نفس المتلقي. وهو يستعمل وسائل الاتصال المعتادة - اللغة والصورة والرمز والقصة - ولكنه يفعل ذلك بشكل

أكثر تعقيدا وأكثر إيجاء مما يحدث في عملية الاتصال اليومية العادية.» (2)

كما أن الأدب يفتح أبصارنا على خبرات إنسانية مختلفة المكان والزمان، ويغوص بنا في عمق الحياة الإنسانية، ونكتسب من خلاله قيماً إنسانية، فنقترب من الآخر فكريا وروحيا:

« يكتشف الأدب نواحي مختلفة من الخبرة الإنسانية بشكل معقد وجميل، ويجعلنا أكثر قدرة على الفهم والتفكير، ويمكننا من الغوص إلى أعماق أبعد في طبيعة الخبرة البشرية. ويوصف الأديب عموماً بأنه يتمتع بنظرة ثابتة وقدرة فريدة على الفهم. فهو يتأثر بما يمر به من خبرات حياتية تأثراً عميقاً وغنياً، وهو قادر على استلهام هذه الخبرات في كتابته على نحو عميق وغني. وتتميز الكتابة الأدبية بأنها غنية في استعمالها اللغة والصور البيانية والأفكار بشكل راق ودقيق. وإذا اقترن هذا مع خيال المتلقي الذكي والخصب؛ فإن هذا التفاعل بين الكاتب والقارئ يوجد عالماً متخيلاً ثرياً وعميقاً. يضاف إلى ذلك أن الأدب الذي يقوم في الأساس على إلقاء الضوء على ما في الحياة من تعقيد وتناقض ومفارقة يعكس عالماً ثرياً ومؤثراً. ويكتب الأدب في أشكال وأنواع وتقاليد مختلفة، ولهذا كله تاريخ طويل أسهم أدباء كبار

في تطويره ورسم خطوطه. فالأدب يبني على ما سبقه من أدب، فيكون لبنة إضافية في تاريخ من الفكر والتعبير الجميل.» (3)

ويستلهم الأدبُ الواقعَ ويعيد تقديمه بشكل مختلف. وهو يصور العوالم المادية والأخلاقية تصويراً مؤثراً بوسائل جمالية لها أثر كبير في الطريقة التي ننظر بها إلى العالم والحياة وإلى الخبرة الإنسانية ككل، الأمر الذي يفتح لنا المجال للتأمل والتدبر والتنظير والوصول إلى نتائج مرحلية في ما يتصل بالإنسان والكائنات الأخرى. ويؤثر الأدب فينا تأثيراً آنياً بما فيه من أصوات وإيقاعات ورموز بما تثيره ألفاظه فينا من صور ذهنية وأخيلة.

ويقدم الأدب صورة للعالم كما يبدو للناس في مجتمع من المجتمعات. وبعبارة أخرى، نتعلم من الأديب الشيء الكثير عن كيفية فهم العالم والحياة في المجتمع الذي ينتمي إليه. فبالأدب نفهم ثقافة من الثقافات في مرحلة تاريخية معينة فهما يمكننا من مقارنتها مع غيرها من الثقافات في أماكن أخرى وفي حقبة تاريخية أخرى، فنحصل على صورة مجسمة للإنسان على اختلاف ثقافته وأعرافه وأجناسه وأساليب حياته وقيمه ومعتقداته ومواقفه مما يدور حوله من تطور في مجالات لا تعد ولا تحصى.

وتضيف الدكتورة زياد حكيم إلى أن الأدب بصفته شكلاً من أشكال الخطاب الثقافي، ويؤدي مجموعة من الأدوار كتكوين الأفراد، وتنشئتهم، وربط اللحمة بين أفراد المجتمع الواحد، ويقرب المسافات ما بين الجماعات الإنسانية، فإنه يحدد الأسس والمعاني التي تقوم عليها القيم الإنسانية العامة، وبذلك يعزز الرموز الثقافية واللغوية التي تقوم عليها المجتمعات. والأدب - فوق هذا - يكتف الوضغ الإنساني بما فيه من خيال وابتكار، ويكتشف الصراعات القيمة والعرقية والطبقية والدينية داخل الإطار الثقافي.

النص الأدبي.. نصٌ معرفي

إن النص الأدبي هو نصٌ معرفي تتلاقى فيه جملة من المعارف الإنسانية أهمها على الإطلاق المعرفة الأدبية، لكنها ليست كافية وحدها، ولذلك فإن قارئ الأدب الذي يكتفي بمعرفة الأدب فقط تكون قراءته غير كافية ومعرفته بالنص هي أيضا غير كافية فعليه أن ينزع إلى معارف أخرى لأننا قد نجد في النص الأدبي المعرفة التاريخية والنفسية والاجتماعية والسياسية، وحتى المعرفة الاقتصادية والعلمية وغير ذلك من المعارف الإنسانية وهو ما يُلقى مسؤولية إضافية على كاهل المشتغل بالأدب كتابة وقراءة في التزود من هذه المعارف قدر الإمكان للاستعانة بها في قراءة النصوص الأدبية وكتابتها. (4)

النص الأدبي جمالية ومتعة

النص الأدبي كلام متعدّد المستويات متعدّد الخصائص الفنيّة، يؤدي- فضلا عن وظيفته المعرفيّة- وظيفة نفسيّة، تتمثّل في التأثير في المتلقّي من خلال تحريك انفعالاته وزيادة عنصر التعجيب لديه، أي الدفع باتجاه خلق التوازن بين منظومته الفكرية ومنظومته الشعورية، وإنّ الصورة الفنية هي التي تضيفي على النصّ شعريّته وتمنحه القدرة على التأثير، وتعدّ مظهرًا من مظاهر الفنّ والجمال في النصّ الشعري (مثلا)، ومؤشرا قويًا على عبقرية وإبداع الشاعر. (5)

إنّ البحث في جمالية النصّ الأدبي وكيفية تذوقه هو بحث في فلسفة الجمال، والدواعي والأسباب التي تبعث على الشعور بالجمال تجاه ما ينتجه الإنسان ، لأنّ الإنسان مجبول على حب الجمال والبحث عنه والسكون إليه .

اختيار الأدباء والدارسين لكلمة التذوق دلالة على استشعار مكنن هذا الجمال بلاغة تصف بلاغة حتى لكأنّ النصّ الأدبي طعام يشتهي فيتذوق مع ما في التذوق من الاستلذاذ المنزه عن النهم ، وإشارة أخرى أنّ حاجتنا إلى الأدب وما يروي النفوس كحاجة الجسم إلى الطعام فكما أنّ نقص الغذاء يؤدي إلى الضعف والهزال وفقدان العلم يؤدي إلى الضمور والشلل الفكري فكذلك نقص الغذاء

الوجداني والدرس الأدبي يؤدي إلى جفاف المشاعر وجذب الأحاسيس.

النص الأدبي لا يكون نصاً إلا إذا عبّر عن شعور صادق غير مفتعل، شرط أن يصادف ثراءً لغوياً يمكن الكاتب من التعبير عن ذلك الشعور الصادق، في قالب أدبي تتوافر فيه كل مقومات النص الأدبي الناجح، ووجود ترابط قوي بين النص وصولاً لأفضل سبل التواصل بين الكاتب والقارئ.

إحالات :

- (1) - الأستاذة: رشا المالح. الأدب ثراء للحياة . صحيفة مسارات الاماراتية. 10 أبريل 2011
- (2) - د. زياد حكيم. لماذا ندرس الأدب ؟ منتديات بوابة العرب.
- (3) - المرجع السابق.
- (4) - أ. بشير بريز. النص الأدبي وتعدّد القراءات . موقع تمازيغ :لغة الضاد، النصوص الأدبية.
- (5) - الأستاذ : عقيل جاسم دهش. مجلة مركز دراسات الكوفة: العدد26 ص : 67 سنة 2012

ثقافة الطفل قوامها الأدب

عندما نتكلم عن ثقافة الطفل فإننا نتكلم عن مكوناتها ووسائلها ومصادرها و من بين هذه المكونات الأساسية :

الأدب الذي هو ركيزة ثقافية أساسية، وهو تشكيل أو تصوير تخيلي للحياة والفكر والوجدان من خلال أنساق لغوية، وهو فرع من فروع المعرفة الإنسانية العامة، ويُعني بالتعبير والتصوير فنيا ووجدانيا عن العادات والتقاليد، والسلوكيات الحياتية للناس، وكذا الأفكار والقيم والآمال، والمشاعر وغيرها من عناصر الثقافة ... أي أنه تجسيد في تخيلي للثقافة.

ويشمل هذا المفهوم الأدب عموما بما ذلك أدب الأطفال، بيد أن أدب الأطفال يتميز عن أدب الكبار بمراعاته لحاجات الطفل وقدراته وخضوعه لفلسفة الكبار في تثقيف أطفالهم وإعدادهم للحياة المستقبلية.. وهذا يعني أن لأدب الأطفال من الناحية الفنية مقومات الأدب العامة نفسها غير أن اختيار الموضوع وتكوين الشخصيات، وخلق الأجواء والاستخدامات اللغوية، والأسلوب التي تُبلغ به الفكر

أو الأفكار في أدب الطفل تخضع لضوابط خاصة تناسب قدرات الطفل.

ذلكم أن أدب الطفل يُسهم في نقل جزء من الثقافة الهامة إلى الأطفال بصورة فنية متميزة قوامها الإمتاع و التثقيف والتنشئة الاجتماعية المنشود في المجتمع. يمكن القول واستنادا إلى ما سبق إن المقصود بأدب الطفل ذاك الإنتاج ذو الطابع الأدبي الذي يُكتب خصيصا لجمهور الأطفال من سنّ ما قبل المدرسة إلى سن الثامنة عشر. وبالطبع تُقسم هذه السنوات إلى مراحل متدرجة حددها علماء النفس والتربية بدقة من حيث النمو العقلي والبدني والوجداني ... وهي أقرب ما تكون إلى مراحل التعليم المعروفة، حيث لكل فئة ما يناسبها.

إن قوام أدب الأطفال يتمثل في الكلمة الجميلة وعماده الخيال، وغرضه إمتاع و تهذيب وتعليم هذا الطفل وذاك الفتى؛ ويشمل مختلف فنون القول المعروفة " كالشعر والقصة والرواية والمسرحية والأنشودة " .

ويتخذ أشكالاً أخرى عبر وسائط متنوعة أهمها الرسوم المتحركة والأشرطة السينمائية، والغناء الهادف، والشرائط المصورة ومسرح العرائس ...

وأخيراً حتى الأقراص المحوسبة.. أقراص تتضمن بالكاد كل هذه الفنون فضلاً عن فيض من شتى المعارف الإنسانية المختلفة متوافقة مع المستوى العمري والمعرفي للطفل في إطار التثقيف الأدبي، أو العلمي أو حتى التكويني استناداً إلى المناهج التعليمية المعروفة وفي شتى المواد العلمية، والأدبية، والفنية، والاجتماعية وغيرها.

أدب الطفل بين جهل أو استقالة الأسرة، وتخلي المدرسة

يبدو لي أن إعراض الطفل عن قراءة القصص والأدب، سيّما أدب الطفل هو نتيجة لعوامل عديدة؛ فالأسرة هي الوعاء التربوي، والثقافي الذي تتبلور داخله شخصية الطفل تشكيلا فرديا، واجتماعيا ودينيا، وهي بهذا تمارس عمليات تربوية تثقيفية هادفة من أجل تحقيق نموّ الطفل نموّا سليما... ومّا لا ريب فيه أن الوضع الثقافي والتعليمي للأسرة يؤثر في تنشئة الطفل وتربيته تأثيرا مباشرا، وبخاصة في سلوكه الديني والاجتماعي والثقافي.. فالميل إلى القراءة، والمشاركة في الأنشطة الثقافية المحلية وحتى الوطنية، والمساهمة في المسابقات، وممارسة الحوارات الفكرية داخل الأسرة، ووجود المجلّة والكتاب والصحيفة اليومية، وانكباب أفراد الأسرة عليها.. كلها عوامل ذات تأثير إيجابي في تنمية الوعي الثقافي لدى الطفل، وكذلك مساعدته على النموّ السليم والتنشئة التي تسمح بسرعة التكيف الاجتماعي والثقافي، مع الوسط المدرسي من ناحية، ومع الوسط الاجتماعي الثقافي من ناحية أخرى.

- هل الكتاب الغير المدرسي داخل الأسرة متوفر ويمسّ كل مجالات المعرفة، أو بعضا منها ؟ - كيف هي نظرة الأبوين وأفراد الأسرة إلى الكتاب ؟ - هل توجد مكتبة منزلية؟ كمية الكتب بها؟ نوعيتها؟ استثمارها؟ طريقة العناية بها ؟ - ما نصيب الطفل منها ؟

- هل عوّد ويُعوّد هذا الطفل منذ صغره على المطالعة خارج الواجبات المدرسية ؟

- هل الأسرة لها ارتباط بالصحافة ؟ وهل هذه العلاقة يومية ؟

للمدرسة دورها في تثقيف وتربية الطفل، وهذا الدور يبدأ مع أول التحاق للطفل بالمدرسة، ولذلك فإن دور المدرسة جدّ عظيم في تعليم الأطفال القراءة الموجهة أولاً، ثم المطالعة الحرّة، إلى جانب إثارة اهتمامهم وشغفهم بهما. وكذا تنمية الشغف بهما من خلال تنوع الأدوار في المدرسة نحو تحقيق هذا الهدف؛ فمنها ما يرتبط بالمنهج المدرسي، وشكل الكتاب ومحتوياته، ومنها ما هو مرتبط بالمعلم، وأيضاً المكتبة والنشاط المدرسي، كل ذلك له دوره في تعليم أطفالنا وتثقيفهم، وتنمية الميول والشغف نحو القراءة، والمطالعة لديهم.

لَمَّا نطرح مثلَ هذه الأسئلة كي نُؤكِّد بأن المدرسة عندنا على غرار العديد من البلدان التي تشابهنا عجزت عن دورها التثقيفي، بل وحتى التعليمي في بعض مراحل التعليم..

عادة المقروئية التي من المفترض أن تتعاقد الأسرة والمدرسة على غرسهما لدى أبنائنا، وبناتنا كوسيلتين رئيسيتين للتثقف وإثراء المعارف والاندماج في المحيط القريب والبعيد، وأداتين للبحث والتقصي وليس فقط في المؤسسة التعليمية.. فشلنا في ذلك وكلتاها تنحى باللائمة على الأخرى.

الأزمة ليست أزمة لم يعد الطفل يقرأ القصص، والادب الذي يوجّه إليه، ويحمل اسمه (أدب الطفل)، ولا في اختفاء الكاتب القدير للأطفال. بالرغم من أنّ الكتابة للطفل عصيّة، وليس كل كاتب للكبار بقادر على الكتابة للأطفال. فإن المكتبة العربية، وكذا معارض الكتب عامرة بأدب الطفل من قصص، وشعر، ومسرحيات، وغيرها من كتب العلوم والاجتماعيات المبسّطة.

حقًا إننا مع الطرح الذي يرى أنّ الوسائط الرقمية الجديدة " بلّدت " الطفل ، وحوّلتَه إلى "آلة" لمتابعة برامج الرسوم المتحركة التي لا تنتهي، والألعاب الالكترونية عبر الانترنت باستعمال الكمبيوتر،

والأجهزة اللوحية، والهواتف الذكية. لكن الأغرب أن أغلب أطفالنا، وهذه الوسائل العصرية بين أيديهم، لمّا يطلب منهم أساتذتهم إعداد بحثٍ في موضوع ما يلجؤون إلى صاحب مكتبة في حيّهم كي يستخرج لهم البحث من الإنترنت، أو من حاسوبه، ويمدّهم به مطبوعاً، والبحث (ستاندار) للجميع، يغيّر إلاّ اسم التلميذ، وياليت هذا التلميذ يقرأ البحث قبل أن يسلمه لأستاذه.

من خبرتنا في ميدان التربية أن عادة المقرئية تنغرس، وترسخ من الكتاب المدرسي، وكذا الارتباط بأدب الطفل الذي يكون من خلال الأعمال المكتملة للمدرسة كتمثيل المسرحيات، وأداء الأناشيد التي تتغنى بالوطن، وبالبيئة، والوالدين، وبالرموز الوطنية والدينية؛ وفي مقدمة هذه الأنشطة التربوية الترفيحية، تأتي حصص المطالعة التي تبدأ من السنة الثالثة ابتدائي، وتتواصل متدرّجة مع مستوى التلاميذ، وتحصيلهم العلمي حتى نهاية التعليم الثانوي.

ما يؤسف له - وهذا واقعٌ - أن أغلب المعلمين والمعلمات، والأساتذة، والأساتذات؛ بالرغم من أنّ مكتبة الفصل، ومكتبة المدرسة موجودتان، وبهما الكثير الكثير من كتب الأطفال، وحصّة المطالعة مبرمجة، إنّما يضحّون بها من أجل إتمام برامج المواد الأخرى

الهامة في نظرهم كالرياضيات، والعلوم، والتكنولوجيا، وغيرها التي ترمج في الامتحانات.

الطفل ضحية تخلي الأسرة عن دورها في ربط الطفل منذ الصغر بالكتاب الغير المدرسي، وكذا المدرسة التي صار همها حشو عقل الطفل بالمواد العلمية بالدرجة الأولى، ثم المواد اللغوية بالدرجة الثانية.

الإبداع الأدبي الشبابي.. ومسافة الألف ميل

الإبداع الأدبي كما هو معروف لدى التّقاد والمتخصّصين هو عملية ذهنية واعية، قوامها مجموعة من البنى الفنية واللغوية ، والتي تُسهم في توليد الجديد من النصوص ،فيأتي النص الجديد ليختزن خلاصة التجربة الإبداعية للمبدع الذي أنتج هذا النص، ويصبح هذا النتاج اللغوي والمعنوي نصا جماليا فيه متعة وجمال للمتلقّي الذي هو جزءٌ من العملية الإبداعية، بما لديه من قراءات، ومخزون فكري وثقافي.

فإذا كان المتلقي في حالات كثيرة وهو أمام نصّ إبداعي سواء أكان سردا، أم شعراً تعزّبه الدهشة، وربما لمتعة النص عدم القدرة على توضيح السبب الذي يجعله متماهيا مع النصّ الإبداعي، أهي اللغة التي يوظفها المبدع بمهارة وحنكة؟ أم هو الأسلوب الجذّاب المشوّق؟ أم هي الصور الفنية؟ أم الخيال الخصب للمبدع؟ أم الموضوع؟ أم كل هذه العناصر مجتمعة؟؟

ما يجرّنا هنا إلى الحديث عن ما يبدعه الشباب عندنا؛ بل حتى الكبار، هل العوامل السالفة الذكر التي قد نعتبرها شروطا

أساسية لكل نتاج أدبي؛ بل نغالي إن قلنا بأن الزاد اللغوي الذي يُفترض أن يكون لدى كل مبدع؛ بل كل كاتب هو العصا السحرية. ولا نغالي إن قلنا بأن هذا الزاد اللغوي الثري جدا بكل ما تحمله قواميس المعرفة الإنسانية كأرضية تمكّن المبدع من أن يأتي بالجديد.

قد يتوقّر هذا القاموس، وهو متوقّر لدى الكثيرين من المثقفين، والأكاديميين، وأساتذة الجامعات، ولكن القلة منهم من صار مبدعا؛ القدرة على توظيف اللغة وتطويرها لطرح المواضيع، أو الإتيان بنصوص إبداعية إنسانية راقية ليس في متناول الجميع، وعماد اللغة وزادها هي القواعد وحسن توظيفها حتى يكون النصّ سليما غير مشوّه، واضحا بما يحمله من زُخْمٍ معرفي، جمالي، وبما يتضمنه من متعة، ودهشة تهزّان المتلقّي.

ما يبعث على الحسرة في واقعنا اليوم، ونحن نطالع نصوصا متنوعة مسرحية، شعرية، سردية لشباب وشابات سواء في الصحافة المكتوبة، أو يتقدمون بها إلى هذه الهيئة، أو تلك طمعا في قبولها ونشرها؛ فإذا هي نصوص مليئة بالأخطاء النحوية، والصرفية، والإملائية، وجمل ركيكة، وتراكيب مهلهلة، وأفكار مشوّهة، وكلهم يتسرّعون نشر نصوصهم ، ومباركة هذه النصوص ممن سبقوهم إبداعا

وتجربة؛ بل منهم ومنهن لم يُطبع له، ولها غير عملٍ واحدٍ فيتلهف، أو تتلهف على الحصول على الريادة، أو الرتبة الأولى في الجوائز والمسابقات.

في رأيي الشخصي أن أغلب النصوص الإبداعية هؤلاء الشباب تفتقد إلى الثقافة الموسوعية، والثقافة المتخصصة إن كانت مسرحًا، أو شعرا، أو سرّدًا ، إضافة إلى ضعف الرصيد اللغوي، وتنوّعه، والقدرة على توظيفه وتطويره خدمة للنص المبدع، وكذا الضعف في التحكم في القواعد.. وليس معنى هذا أنّ الساحة الشبابية تخلو من مبدعين يبدعون نصوصا في مستوى متميّز مقبول .. إنهم قلة القلة.

عتبات تُفري المتلقي .. وتُقوده إلى النصّ

دون ريب فإنّ جلّ الكُتّاب والمبدعين يعانون الكثير في انتقاء عناوين لأعمالهم، العناوين التي يُنظر إليها على أنّها العتبة الجذّابة التي تُفري المتلقي، وتدفعه إلى اقتناء المكتوب أيّا كان سواء أكان مكتوبا إبداعيا، أم غيره، وبطبيعة الحال أيا منا هذه فالأمر منصبّ على عتبة الرواية بعد أن كان الشعر السيد في هذا المجال.

صعوبة انتقاء العناوين يشترك فيها الكُتّاب والمبدعون الكبار مثلما الصغار على حدّ سواء، إنّما لدى الكبار بدرجة أقلّ لامتلاكهم الخبرة والدربة الطويلة، وعدم توقّفهم كثيرا في رأيي الشخصي عند هذه المخطّة على اعتبار أن شهرتهم ومستوى كتاباتهم، وانتشار جمهورهم العريض جغرافيا طمأنهم لكون أعمالهم مقبولة لمضامينها قبل العتبات التي يلهث وراءها الكُتّاب والمبدعون الناشئون، أو المغمورون.

كان العرب وبقية الشعوب ذات الثقافات المدونة يحرصون على إظهار المطبوعة بقلب رشيق جميل تتضافر فيه الكلمة مع الرسم والنص، مع العناوين والهوامش، والمؤثرات البصرية كالرسوم والزخارف.

يحرصون على ما يسمى «عتبات النص» والذي يتلخص في جملة المدخلات الشكلية، أو التشكيلية ابتداءً بالخط، مروراً بالعناوين، واستطراداً على الهوامش التي كانت موازية للمتون، منفصلة عنها ومتصلة بها في آن واحد. أيضاً إدخال الألوان والأشكال الهندسية والرسومات.

كان أسلافنا يؤلفون بتواضع العارفين الذين يحيلون المعلومات إلى أهلها دونما ترفع أو غطرسة، كما كانوا يعتنون بالمطبوعة عناية الفاحص المدقق الذي لا يقبل بأقل من الكمال، وسنجد في عشرات بل مئات المتون القديمة اتساقاً شكلياً وخلواً من الأخطاء وحرصاً بالغاً على احترام المتلقي.

كما كان العديد من الشعراء القدماء في الجاهلية يعنونون قصائدهم بعنوان محدد، حيث يحرصون على أن تكون مفاتيح قصائدهم مفاتيح مرغبة وجاذبة وليست منقّرة.. كانوا يهتمون اهتماماً كبيراً بالمقدمات والمفاتيح حتى أثر عن ابن رشيد في هذا المقام أنه قال: « إن القصيدة لا بدّ أن يكون فيها مبدأ وخروج ومنتهى. » ومن ثمة قالوا: إذا كان مدحاً فالنسيب مقدم.. وإذا دخلنا إلى القدماء في اتجاه آخر غير التأليف والشعر إلى الخطابة مثلاً فكانوا يقدمون بما

يُسمّى بعبّات النص من خلال الاستهلال والاستفتاح، ومن خلال المدح والثناء ؛ (1) وبالتالي سنجد هذا كله يدخل في مفهوم عبّات النص.

كما أن علماء العربية سلّطوا مشارطهم على (عبّات النص)، وعرفوا أهميتها " فاتخذ في البداية شكل إشارات، وتوجيهات متناثرة في مصنفات عامة، ثم أُفرد بعد ذلك بمؤلفات خاصة، تحدد قواعد كتابة النصوص، وضوابط تفصيل خطاباتّها، من بينها على سبيل المثال لا الحصر: أدب الكاتب لابن قتيبة(ت276هـ)، وأدب الكتاب للصولي (ت335هـ)، والاقتضاب في شرح أدب الكتاب (ت 521هـ) ."

وتواصل الاهتمام بعبّات النص حتى صارت الرؤية واضحة، والمعالم بارزة، فأطلقوا عليها (الرؤوس الثمانية) ومنهم تقي الدين المقرئزي (ت 845هـ) حيث يقول في باب عنونه بذكر الرؤوس الثمانية:

«اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبة، وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه .»

ثم يمضي في شرح هذه الرؤوس الثمانية.(المرجع: عتبات النص عند شعراء الرومنسية عبد السلام إبراهيم السيف/موقع ديوان العرب)، وقد تركز اهتمام علماء العربية السابقين على طرق كتابة (الرؤوس الثمانية)، وتبيان أهميتها، وإيضاح أثرها على المتلقي، ولم يتعد البحث إلى إيضاح أثر مؤلف النص، أو مبدعه في تشكيل الرؤوس الثمانية، واختيار طريقة عرضها، وقراءة اتجاهات المؤلف من خلالها.

في العصر الحديث، ومن خلال جيران جانيت، أصبحت هذه الرؤوس الثمانية، أو عتبات النص أو المناص تركز على مجموعة من الأشياء، بعضها ضمن الرؤوس الثمانية، والآخر خارج إطارها، وأهم هذه العتبات، والمناصات هي (اسم المؤلف، والعنوان، والأيقونة، والافتباس، والمقدمة). (2).

اسم المؤلف أصبح يشغل " أربع عتبات: صفحة الغلاف الأولى، و صفحة العنوان، و صفحة الغلاف الأخيرة، وحاشية الكتاب " .

والعنوان يمثل أهمية قصوى ضمن عتبات النص، فهو أول ما تقع عليه عين المتلقي المهتم بالعناوين، أو ثانيها بعد اسم المؤلف، فالعنوان يمثل واجهة للنص أو الكتاب، أو الديوان، أو الرواية أو

غيرها، وهو الذي يعطي الانطباع الأول عن ماهية الداخل، هو مُهيئ من مُهيئات القارئ لما سيأتي في النص. والأيقونة عتبة لم تكن لتظهر سابقا، فهي مرتبطة بوسائل التقنية الطباعية، فالأيقونة هي الصورة التي تصاحب عنوانا من العناوين، أو تسبقه، أو تأتي بعده، سواء كان عنوانا رئيسا للنص، أو مجموعة النصوص، أو كان عنوانا فرعيا داخل كتاب.

ويندرج الاهتمام بعبات النص ضمن سياق نظري، وتحليلي يعني بإبراز ما للعبات من وظيفة في فهم خصوصية النص، وتحديد جوانب عديدة أساسية من مقاصده الدلالية، وهو اهتمام أضحى في وقتنا الراهن مصدرا لصياغة أسئلة دقيقة (3) تعيد الاعتبار إلى المتون الإبداعية المتنوعة الأنساق، لما تتميز به عن بعضها بما يفتح أمام المتلقي نوافذ تحبّذه في الاقتراب من النص ومبدعه. المشهد البصري هو أول ما تلتقطه العين الباحثة في عناوين الإصدارات، فثمة قارئ يستهويه غريب الأغلفة، أو أكثرها إثارة في التشكيل، والإضاءة، وتوزيع الألوان. وهنالك من لا يكثرث إلاّ لاسم المؤلف، لا سيما إن كان يحظى بالشهرة.

العنوان، الغلاف، الصورة، أو اللوحة الفنية، الخط وأشكاله، وتشكيله، وخلفية الغلاف، موقع اسم المؤلف، وحتى الإهداء، العناوين الفرعية، الرسومات الداخلية، صفحة الغلاف الأخيرة كلها عتبات تُعطي دلالات مباشرة أو غير مباشرة حول متن الكتاب.

قد تكون هذه العتبات مغرية وجاذبة للمتلقّي تحطف أبصاره،(4) وهي مجتمعة عتبات كاذبة ينخدع بها المتلقّي من حيث أنها لا تعكس القيمة الفعلية لمُتن الكتاب، وقد تكون مجتمعة صادقة، أو البعض منها. يمكن النظر إلى العتبات من منظور جمالي مؤثر، لا مجرد محطة تواصلية عابرة أحادية المظهر، وبسيطة التكون؛ أي أنها أضحت ظواهر نصية معقدة، وملتبسة لا تبوح بكل مدلولاتها، ولا تجلي ما هي حاملة له، فمدلولها كامن في منطق تكوينها، وفي ما تشي به من معانٍ ودلالات كامنة غير تلك الظاهرة.

بيد أن الأمر يستلزم، بالإضافة إلى ما سبق، النظر إلى العتبات من خلال موقعها في فضاء النص باعتباره كلية دالة، أو نسقا من العلامات الدالة، من جهة، وفي علاقتها بالنص المركزي من جهة أخرى.

وهذا ما يفترض استثمار العتبات التي تتشكل في ملفوظات لغوية، أو صيغ أيقونية (كالرسوم، والصور...)، أو مادية ك (نوعية الطباعة، مقاييس الكتابة، أحجام الحروف والسطور...)، شريطة استحضار درجة اندماجها (أي العتبات) داخل فضاء الأثر الأدبي، أو موقعها داخل النسيج النصي: فاندماج العتبات والنصوص المخاذية في فضاء النص يوصف بـ "العتبات والنصوص المحيطة"، وانفصالها عن فضاء النص يصطلح عليه بـ "النصوص المخاذية اللاحقة".(5).

لم تكن العتبات تثير الاهتمام قبل التوسع في مفهوم النص، ولم يتوسع هذا المفهوم إلا بعد أن تمّ الوعي، والتقدم في التعرف على مختلف جزئياته، وتفصيله، وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى تبلور مفهوم التفاعل النصّي وتحقق الإمساك بمجمل العلاقات التي تصل النصوص ببعضها البعض. كان التطور في فهم النص، والتفاعل النصّي مناسبة أعمق لتحقيق النظر إليه باعتباره فضاء، ومن ثمّ جاء الالتفات إلى عتباته.

كل نصّ هو عملية معمارية، ذلك أن ترصيف الكلمات، وتنضيد الجمل، وارتباطها ببعضها البعض، واصطفاف هذه البنيات هي عملية بناء لا ريب، وبحسب هذا المنجز المعماري الذي تختلف

سياقاته من كاتب إلى آخر، ومن جنس أدبي وفكري إلى آخر كان العرب القدامى يوظفون مفاهيم تتصل بالمكان في تشخيصهم للكلام، وطرائق بنائه : البيت، والعمود، البناء، الباب، الفصل.

إن هذه العمليات تؤدي بنا إلى أن نرى النص بناء، حيث لا يمكننا الانتقال بين مكوناته دون المرور على عتباته.(6)

لا يمكن النظر إلى العتبات باعتبارها خطابا بريئا، أو ترفا فكريا يرصع فضاء النص فحسب؛ بل يستدعي الأمر استثمار هذا الوجود النصي استثمارا جماليا، أو إيديولوجيا (عنوان جميل، مقدمة سجالية، صورة مثيرة...) من منطلق القوة اللفظية لهذه العتبات الجاهزة لخدمة شيء آخر، والمخففة من حدة التوتر الذي يعتري القارئ و هو يشع في تلقي الأثر الأدبي.

كما أن كل عتبة ترسم ملامح هوية النص، وتبني كونا تخيليا محتملا، وتقدم إشارات أسلوبية ودلالية أولية تؤهل القارئ للولوج إلى عالم الكتاب بشكل تدريجي. وبهذا المعنى، فكل عتبة إحالة مرجعية إيجابية تعبر عن موقف ما وتحيل على " بنك معلومات " أولية عن المتن المركزي المرتقب. أي أنها: " ملفوظات حول العمل المبدع ". (7)

إحالات :

1. د. حسين جمعة. يومية الثورة السورية/ 2012/09/17
2. عبد الفتاح الحجمري. عتبات النص ..البنية والدلالة.ص7 منشورات الرابطة. الدار البيضاء ط1 1996
3. أ. محمد محمود البشتاوي. عتبات تقود إلى النص .المجلة العربية السعودية .ص 25.العدد 434 فيفري 2013
4. أ. عبد المجيد علوي إسماعيل. عتبات النص ..مقاربة نظرية. مغرس .أخبار الجنوب المغربية 2012/03/19
5. أ. عبد الحق بلعابد .عتبات جرار جينيت من النص إلى المناص.ص:15 منشورات الاختلاف. الدار العربية للعلوم ناشرون ط 1 2008
6. المرجع السابق ص 44
7. عبد المجيد علوي إسماعيلي. عتبات النص: مقاربة نظرية. أخبار الجنوب ..مجلة مغربية إلكترونية. 19 مارس 2012

مجموعتي القصصية الأولى ..أيقونة الروح،

وبدايات الحكّي

إنّ المسار الفكري والإبداعي لأيّ كاتب لا يختلف البتّة عن مسارات الآخرين.. كل شخص سويّ في الكون له مسارٌ به تحدّدت عن طريقه كينونته، ومكانته في الحياة؛ إلاّ أن مسار العباقرة والمفكرين، والكتّاب مساراتهم تتعدّى فردانيتهم إلى الآخرين، وتنعكس عليهم، وفيهم؛ وإنني لا أرى اختلافاً جوهرياً بين مسارات هؤلاء، وبين سيرهم الذاتية التي قد يروونها بأنفسهم، أو يجرونها على الورق، وتيمّتها الصدق، والصراحة.

هل السيرة الذاتية حكي استرجاعي نشري، يتولى إنجازها شخص واقعي، مركزاً على وجوده الخاص وحياته الفردية ؟ أم هي كل نص مكتوب، سواء أكان عملاً أدبياً أم دراسة فلسفية، يعبر من خلاله الكاتب عن حياته الفردية ؟ أم أن السيرة الذاتية عملية إعادة بناء أدبية لحياة إنسان، يتولى نفسه القيام بها، أم إنّها المسار الحيوي الذي عاشه الفرد الكاتب في سياق تسلسلي من التنوع الوجودي والحياتي المختزن ؟ يقول الناقد والأديب الفلسطيني المرحوم إحسان عباس: «

إن كاتب السيرة الذاتية قريب إلى قلوب الناس، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطة ما بينهم وبينه، متحدثاً عن دخائل نفسه وتجارب حياته حديثاً يلقي آذاناً واعية، لأنه يثير في الناس رغبة في الكشف عن عالم مجهولونه». ويضيف عباس: « كل سيرة إنما هي تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني فلا بد أن يكتبها ». إن أسمى ما في السيرة الذاتية أنها ترسم حياة صاحبها، وتكتب ليعرف بها الإنسان نفسه، ويزداد منها قرباً؛ ويعرضها على القراء بطبيعة الحال من زاوية نظره هو، ويحاول في عرضه أن يكون أميناً صادقاً، ويتجرد ما أمكن من العاطفة التي تشده؛ لأن ما نسّميه بالأنا ليس شيئاً واحداً، بل هو متعدد، ليس كالأنا منسجماً متجانساً، الأنا متغيرة تبعاً للمتغيرات المختلفة التي تطرأ على الفرد جسداً، أو نفساً، أو فكراً، أو ثقافة، أو اجتماعاً، أو معيشة.

السيرة الذاتية بوعي كاتبها وتوخيّه محاولة تعبير صادق تكشف عن تمفصلات مهمّة في مسار هذا الكاتب أو ذلك، عن فترة، أو فترات من حياته الفكرية، ومسارات قلمه، أو الظروف التي رافقته إيجاباً، أو سلباً وساعدته في مسيرته على أن يتبوأ مكانه ككاتب، أو

مبدع، أو تغطّي مساره الأدبي والفكري إلى حين تقاعده الإبداعي، وإن كنتُ أستبعد أن يتقاعد المبدع، أو الكاتب الحقّ.

إن أول قصة قصيرة كتبها كانت في سنة 1972، بعد أن حرتُ عدة مواضيع اجتماعية أرسلتها إلى صحيفة "المجاهد الأسبوعي" التي كانت يومئذٍ هي وصحيفة "الشعب" تملآن الساحة المعرّبة، وأيضاً صحيفة: النصر" بدرجة أقلّ، والتي عُربت سنة 1972..

ثم التفتُ إلى مجلة "آمال" المجلة الشهرية الأدبية الثقافية، المخصصة لأدب الشباب، التي كانت تصدرها حينذاك وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، ويتولّى رئاسته تحريرها الأستاذ عبد الحميد السقّاي، فكانت أول قصة تُنشر لي في المجلة في عدد فيفري 1972 بعنوان: "الأبي" وتُنشر لي أيضاً في عددها الواحد والعشرين بتاريخ اجوان . أوت 1974 عمليّن في عدد واحد.. قصة قصيرة في باب القصة بعنوان "القدر الساخر"، وقصيدة شعرية في باب الشعر عنوانها: "صرخة جُرْح" ..ويتتالي نشرُ القصص القصيرة لي بالمجلة في أغلب أعدادها المتوالية: 25، 26، 27، 28، 30، 33، 43، 44... ولم تُرفض لي أيّ قصة.

في أوائل جانفي 1977 اتصل بي الأستاذ بشير قاضي الموظف
بديوان الوزير يعلمني بأن الوزارة قرّرت جمع كل القصص التي صدرت
لي بمجلة آمال، ويستشيرني عما إن كنت موافقاً على أن تصدر لي في
عدد خاص من المجلة، فأبديت موافقتي في الحال، حيث صدرت في
العدد 39 بتاريخ ماي . اجوان 1977 مجموعة قصصية تحمل عنوان "
أخايد على شريط الزمن..". عدد به 19 قصة، وخمسُ قصص قصيرة
جدا.

المفارقة أني لم أستلم العدد الخاص من وزارة الثقافة مباشرة، أو
عن طريق البريد، إنما ابتعته من مكتبة بمدينة الوادي كانت في كل
شهر تصلها المجلات الثقافية العربية من تونس (الفكر، الثقافة)،
مصر (الهلال، إقرأ)، لبنان (الآداب، الأديب)، العراق (الأعلام،
الطليعة الأدبية)، ليبيا (الثقافة العربية)، السعودية (الفيصل)، قطر
(الدوحة)، وكذا مجلة " الثقافة " و " الأصالة "، ومجلة " آمال " ..

وأنا أدخل المكتبة كعادتي كي أقتني ما ألفت اقتناه من تلکم
المجلات العربية، فاجأني صاحب المكتبة بمجلة " آمال " يمدّها إليّ،
ويهنئني، وأنا لم أصدّق أن يصدر عدد خاص لي وحدي، ولا يشاركني
فيه أحدٌ.. غادرت المكتبة لأجد نفسي دون وعي ميّ أجلس على

رصيف الشارع غير آبه بحركة المرور، ولا بالمارّين، ولعلّ ما أبهرني ذلكم الإخراج الجيد، وذلكم التصميم الرائع للفنان التشكيلي الموهوب الطاهر أومان..

لوحة تشكيلية معبّرة عن عتبة المجموعة وقصصها.. إبداع جمالي راقٍ في تقنية الألوان وتوظيفها. وكأنني غير مصدّق أن يصدر لي هذا العمل الإبداعي، فبمجرّد عودتي إلى المنزل قرأت القصص المنشورة بالمجلة تبعاً، وقارنتها مع النسخة الموجودة عندي، فكان التطابق التام..

أن يصدر لك عمل أدبي في ذاك العهد، ومن طرف هيئة رسمية تتولّى الإشراف على الثقافة في الدولة الجزائرية، وتنعدم مؤسسات أخرى للطبع والنشر في البلد، يعني أنك وضعت رجلك في مسار الإبداع والكتابة.

لم أستلم من وزارة الثقافة ولا نسخة واحدة من المجلّة، ولم أتلقّ تعويضاً.. بصدق هذه أجديات ما كانت تخطر على جيلي من الكُتاب والمبدعين حينذاك؛ كما أنّ ثقافة الإهداء إلى الأصدقاء، أو البيع بالإهداء غير معروفة، حيث كانت الحركة الأدبية نشطة، والكتاب متوفراً، وكذا المجلة الأدبية، ونسبة المقرئية مرتفعة .

فما أن يظهر على الساحة عملٌ أدبيٌّ، أو فكريٌّ حتى يتهافت عليه القراء، وينفذ بسرعة.. الكاتب حينها ليس في حاجة للتعريف بنفسه، أو بعمله من خلال الإهداء إلى الأصدقاء، أو بالبيع بالإهداء. العدد الخاص لمجلة آمال الذي صدر لي لا يزال أغلب مثقفي ومبدعي تلك المرحلة يحتفظون به، إذ كلما التقيت بأحدهم ذكّرني به؛ إضافة إلى أنه كان جواز مرور لي في فضاء الكتابة السردية، وتوالي الإصدارات، بحيث نفس العدد طُبِع ككتاب " مجموعة قصصية " صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1982 التي ترأس إدارتها حينذاك الكاتب المبدع خلاص الجيلاني، ثم صدرت المجموعة القصصية الثانية الموسومة بـ " القرص الأحمر " سنة 1986 وغيرها فيما بعد من الإصدارات لتوشح مساري الفكري والإبداعي إلى أيامنا هذه، والحمد لله على فضله ونعمائه، وتوفيقه لي.

الملتقيات الأدبية.. تبقى فضاء للتواصل

والتعارف والتثاقف

يبدو لي قبل أن نبحت عن توارى الملتقيات الفكرية والأدبية المتميزة التي كانت تختصّ بها بعض الحواضر الجزائرية؛ بل حتى بعض المدن الداخلية من الجزائر العميقة كما كان حال ملتقى القصة القصيرة بمدينة سعيدة، وملتقى الرواية بقسنطينة، وملتقى محمد العيد آل خليفة للشعر بيسكرة وغيرها؛ أن نتساءل: هل كانت هذه الملتقيات مرتبطة بجمهور مثقف كان حريصا على حضورها من نفس الحاضرة، أو من جهات كثيرة كان يحجّ إليها المثقف، والكاتب والمبدع؛ وعلى حسابه الخاص، وكانت القاعات عامرة بالكتاب، والمبدعين كما هي عامرة بالجمهور المثقف الذي يعشق الإبداع، ويتذوّقه، ويناقش بعقلانية، وبذوق راقٍ ممّا كان يُعطي للملتقيات والندوات ألقاً وفعالية.. هل لا يزال هذا الجمهور المثقف موجودا؟

نحضر اليوم ملتقيات ثقافية في هذه الولاية، أو تلك لا نجد أثرا للجمهور المثقف من المجتمع، تنظمها هذه الهيئة أو تلك، وكم يشقى منظموها في توجيه الدعوات، والاتصال بمن يرون أنهم أهلٌ للحضور،

وفي غالب الأحيان يكون الحضور مخيباً للآمال. وليس الأمر في الجامعات أحسن حالاً، فبمجرد أن تتمّ مراسيم الافتتاح، وتبدأ الجلسات العلمية يبقى في القاعة غير المحاضرين الذين أغلبهم غايتهم الحصول على شهادة المشاركة للاستفادة منها في الترقية، أو الطلبة الذين عادة ما يحضرون تلبية لأمر أستاذة الاختصاص، أو الأستاذ.

أتذكر أن المحاضرة، والندوة في السبعينيات وحتى الثمانينيات في قاعة " المُقار"، أو في قاعة النفق الجامعي، أو قاعة اتحاد الكتاب الجزائريين، أو فروعها خاصة فرع وهران، وقسنطينة، وكذا المركز الثقافي الإسلامي، أو في جامعة الجزائر المركزية خلال مناقشة رسائل التخرج، كانت القاعات تضيق بالجمهور من أطراف متعددة من المجتمع. كما كان الطلاب يتسابقون على المقاعد مع الأساتذة، والجمهور أيضاً من خارج الجامعة يظل فارضاً حضوره حتى انتهاء المناقشة، أو المحاضرة.

في السنوات الأخيرة وحتى في أيامنا هذه تنظم هذه الجامعة، أو تلك ملتقى يتعلق بالشعر، أو بالسرد، أو المسرح، أو بالنقد، أو ما يتعلق بالإبداع الأدبي فلا تستدعي أي مبدع من خارجها، ومن يحضرون من المبدعين فقد يكونون أساتذة، وما هو مؤكد أن الطلبة

فيهم من سلكوا درب الإبداع، ولهم مواهب وبإمكان الجامعة اكتشافهم، ورعايتهم، وإبرازهم في هكذا ملتقيات، ولكن لا يلتفت إليهم؛ والعكس أن الملتقيات التي ينظمها القطاع الثقافي مركزيا، أو محليا لا يحضرها أساتذة الجامعات، ولا يُوصون الطلاب بحضورها حتى يبرزوا، ويشاركوا في الفعل الثقافي في المجتمع، ومنهم سيتكون المجتمع المثقف الذي يُعوّل عليه مستقبلا. حتى النوادي الأدبية بأغلب الجامعات اختفت.

قد يقول قائل: غياب الجمهور المثقف من الساحة يعود بالدرجة الأولى إلى انتشار وسائل المعرفة الحديثة التي صار في إمكان الكبير والصغير، المتعلم والمثقف، الطالب والأستاذ الحصول عليها من مصادرها، وبأسرع وقت، ولا حاجة لهكذا ملتقيات وندوات.

ومن ثمّة يرى عدد من المثقفين أن هذه الملتقيات الأدبية فقدت قيمتها وأهميتها، ولا أمل منها في التأثير على المشهد الثقافي. كما أن العديد من هذه الملتقيات هي تكرار مُملّ لبعض المواضيع والوجوه، التي همّها في الحضور على المتعة السياحية أكثر من ممارسة الثقافة في الملتقى، كما أن تلك الملتقيات هدّر للمال، الذي من الأولى صرفه على المثقف والثقافة؛ كما أن التوصيات التي تخرج بها

تلك الملتقيات كل عام مكررة ودون متابعة لتوصيات الملتقيات التي سبقتها، ودون أن يحمل هم تنفيذ التوصيات الجديدة. السؤال الجدير بالطرح : هل نحن فعلا بحاجة لمثل هذه الأنشطة والفعاليات الثقافية في الوقت الذي يفترض أن تصرف الأموال المخصصة لها في قضايا أكثر أهمية ؟ في تقديري الشخصي ونتيجة التجربة والمعاشة الشخصية، وإشرافي المتعدد في التنظيم والإشراف على العديد من الملتقيات والندوات، وكذا المشاركة في العديد من الملتقيات المحلية، والجهوية، والوطنية تبقى هذه المنابر الثقافية فضاءً ضرورياً يلتقي فيه بعض الكُتّاب والمبدعين، وخاصة المبدعين الشباب، والباحثين لتبادل التجارب والاستفادة من هذا الاحتكاك الثقافي..

احتكاكُ أبا نت الوقائع جدواه لهم من حيث الظهور، والاستفادة، وصقل التجربة، وخاصة في الإبداع الشعري حينما يلتقي جمع من الشعراء يتفاوتون جيليا وتجرية شعريا في خيمة في الهواء الطلق.. إن أغلب الكتاب والمبدعين في الجزائر إن لم أقل كلهم تكوّنوا واستفادوا، وأنا واحد من هؤلاء أقرّ أني استفدت من هذه الملتقيات، وتكوّنت فيها وفيها تعرّفت على الكثير من الكتاب والمبدعين، والمثقفين.

البحث عن النصّ الأدبيّ الجزائري في الكتاب المدرسي ؟

تؤدي المنظومة التربوية أدواراً فعّالة في بناء المجتمع، وغرس القيم، وتعزيز الهوية، وإثرائها، وكذا إعداد الفرد لنفسه ولمجتمعه.. ومن الوسائل التي تعمل على ترسيخ القيم، وتحديد الاتجاهات النصوص التعليمية والتربوية الذي تُقرّر ضمن المناهج التعليمية، ومنها المدرجة في الكتاب المدرسي التي يتلقاها المتعلم، ومنها النصّ الأدبي، والتي جميعها من المفترض أن تُسهم في تكوينه السلوكي، والفكري، والذوقي..

والسؤال الجوهرى في هذا المجال:

- ما مدى حضور النصّ الأدبيّ الجزائري في برامج التعليم ضمن المنظومة التربوية ؟

- هل يستجيب هذا النصّ الأدبيّ الجزائري ضمن المنظومة التربوية لحاجات الفرد الجزائري كمتعلّم، وكمتلقٍ، ويخدم أيضاً مقوماته الحضارية ؟

من بين الأهداف التي تنصّ عليها أدبيات المنظومة التربوية ببلادنا تدريب التلاميذ على تذوق ما يقرؤون، ويطالعون، وما يسمعون في كل مراحل التعليم الثلاث: الابتدائي، والمتوسط،

والثانوي، ومن الأهداف أيضا تعزيز ارتباطهم بتراثهم، وبالقيم، والثواب، والمفاهيم السائدة في وطنهم، والعمل على دفعهم إلى تمثّلها، واعتبارها جزءًا من شخصيتهم.

يتضح لنا ممّا سبق أنّ النصّ اللغوي المكتوب أكان نثرًا، أم شعرا هو من الوسائل الأكثر نجاعة للوصول إلى تحقيق تلكم الأهداف ولو بنسبٍ مقبولة.. فالنص الأدبي لما يتضمّنه من عمقٍ في الأفكار، وجماليات في الأسلوب التعبيري، وتعدّد الصور الفنية به، هو بكل تأكيد مصدر للإثراء الفكري واللغوي، والتذوق الجمالي والفني، ولما يحوزه من أبعاد إنسانية، وقيم واتجاهات توجّه سلوك المتعلمين.. هذا النص الأدبي الجزائري يُعدّ من أهمّ حصص التعليم التي تجدر قيم الأمة الجزائرية، وتُوصّل ثوابتها، ومنها بدون منازع اللغة الأم.. اللغة العربية.

لكن واقع الحال أنّ النص الأدبي الجزائري مُغيّب من قديم، وما ظهر منه منذ الاستقلال ظهر على استحياء، فحتى النصوص المقررة في كل محطات النظام التربوي الجزائري، سواء ما كانت قبل المدرسة الأساسية، أو ما بعدها فيما أُطلق عليه النظام التربوي القاعدي أو الموسوم حاليا بمرحلة الإصلاح.. على قلة هذه النصوص لا تقدم

صورة مشرفة عن الأدب الجزائري، ولا عن تطوره من خلال نصوص
معاصرة أبدع فيها أدياء أحياء معاصرون وكأن المشرفين على البرامج
ينكرون بروز هذه الأقلام، أو يريدون حجبها عن الناشئة..

النصوص المقررة لا تسمح بالتقاط نبضات الوجدان الجزائري،
وخصوصيته الإنسانية. غالبا ما نلقاها نصوصا نمطية للوطنية
والحماسة، وإبراز مآثر الثورة والمجاهدين.. هذا نعم ونؤكد عليه بدورنا
وندعمه، لكن هذا لا ينفي أن الإنسان الجزائري له واقع يعيشه، وله
نوازع إنسانية يبغى إشباعها من خلال النص الأدبي الجميل، وليس
الوصفي أو التاريخي فحسب.

شخصيا أرى أن تغييب النص الأدبي الجزائري من قبل مُعدي
البرامج التعليمية في بلادنا يعود بالدرجة الأولى إلى فترة تكوينهم
الثانوي والجامعي التي لم يدرسوا فيها الأدب الجزائري في كل مراحل
دراسة وافية شاملة سيّما المعاصر منه، وكذا جهلهم التام بحراك
المشهد الثقافي الإبداعي الجزائري، ومنه هذه الإصدارات الكثيرة
المتسارعة في شتى مجالات الإبداع الأدبي، كما يعود إلى عدم
احتكاكهم بالكتاب والمبدعين الجزائريين إن كأفراد، أو خلال

الملتقيات الفكرية والندوات، أو في جلسات الاستضافة وتقديم الإصدارات.

كما أضيف أن العديد ممن يُنتدبون إلى هذه اللجان هدفهم الابتعاد من عناء التدريس، ومواجهة المتعلمين في وضعٍ صار فيه المتعلم لا يحترم أستاذه، كما اللحاق بهذه اللجان فرصة ثمينة لأخذ العلاوات، والمنح التي تحسّن مستوى الدخل.

النصّ الأدبي الجزائري النسوي يتألق

إن المتتبع للحركة الأدبية في الجزائر قبل الثورة يلاحظ غياب مساهمة المرأة في الحركة الثقافية، ويعود ذلك في رأي أكثر النقاد والمتابعين للموضوع إلى أسباب عدّة منها ظروف الاحتلال الذي انتهج سياسة مناهضة للغة العربية، حيث وضع الثقافة الوطنية في وضعٍ شلّ فاعليتها وحركتها، ممّا نتج عنه تأخر الأدب الجزائري عن مثيله في المشرق العربي، بل وحتى في تونس والمغرب؛ ومن ثمّ تأخر ظهور الحركة الأدبية النسائية نتيجة الحصار المضروب على الثقافة والأدب العربيّين، في حين شجّع لغته، الأمر الذي سمح لكثير من الأسماء النسائية اللائنيّات تحذّن من اللغة الفرنسية وسيلة للكتابة بالظهور في الساحة الأدبية خارج الجزائر.

كما يعود تأخر الكتابة النسوية بالجزائر إلى التقاليد الاجتماعية التي كانت تنظر إلى المرأة نظرة دونية، ولا تزال إلى أيامنا هذه في كثير من مناطق الوطن.. نظرة دونية تنطوي على كثير من الاحتقار، وترى أن تواجدتها في الحركة الاجتماعية، والثقافية، والأدبية يثير الفتنة، ويشجع الانحلال، ممّا كبّلها وفرض عليها ظروف العزلة، والتجميد

لطاقاتها الإبداعية، بل ومحاربتها حتى وإن حاولت ذلك. والملاحظ لدى الباحث أن الكتب التي تناولت الأدب الجزائري المعاصر لم تذكر اسم شاعرة أو أديبة سوى "زهور ونيسي"، وكان ذلك مروراً عابراً، وإن كانت هناك كتب تناولت الأدب الجزائري بالفرنسية، وتعرضت للأدبيات الجزائريات اللواتي يكتبن بالفرنسية، وهن لسن أكثر ممن كتبن بالعربية.. الحديث عن التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر حديث يشوبه الارتباك، لأنه مرتبط بحقيقة المجتمع الجزائري قبل كل شيء، فالإبداع فن.. ومن أهم ركائز الفن بعد الموهبة: الحرية، وعنصر الحرية يبدو عنصراً غير واضح الملامح في الأجواء الجزائرية خاصة ما يتعلق بحرية المرأة. ولأن الكتابة قبل أن تكون تركيباً لغوياً فهي تعبير وروح فإن المسألة تتعقد أكثر حين تأخذ الكتابة منحى البحث عن الخلاص من الوضع الاجتماعي الذي تعاني منه . ذلك أن المختلف بالنسبة للمرأة الكاتبة هو أنها تحارب من أجل قضيتها التي هي قضية نصف المجتمع.. وعلى هذا الأساس جاءت التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر عموماً شحيحة سواء من حيث الكم، أو من حيث الكيف.. خاصة منها ما هو مكتوب باللغة العربية، واتصفت تقريبا بما اتصفت به التجربة الإبداعية في الوطن العربي.. وحيث ظهر للمرأة

أصوات جاءت قليلة وضعيفة، وجاءت على استحياء ووجل، أو لعلها تعرضت لعمليات مسخ وتحريف وتحويل، وهذا هو الأقرب.

إن وضع المرأة الكاتبة في مجمله متشابه من شرقه إلى غربه؛ وهذا يعني أن المشكلة الأولى لدى الكاتبات هي أنوثتهن لا كعقبة جسدية، ولكن كعقبة تعبير فقد بلغنا مستوى ثقافيا لا بأس به سمح للمرأة عموما بإدراك لغة جسدها: طبيعة الجسد.. متطلباته.. تغيراته... إلخ. لكنها لم تستطع إيجاد جسد كتابي يترجم كل ما أدركته بعقلها وحواسها كامرأة ولعل المتتبع للمادة الإعلامية الأدبية يلاحظ أن الكتابات النسائية كثيرة ولكنها تتسم بعدد من الصفات التي تقلل من وزنها :

في تقديري الشخصي، الأدب هو واحد لدى الإنسان مذكراً كان أو مؤنثاً. ولكن قضية الاختلاف موجودة. فإذا عدنا إلى ما تكتبه المرأة فإننا نجد الخصوصية تكمن في التكوين الفكري لا في الشكل الفني. وهذا يتطلب منا أن نقرأ نتاج المرأة بشكل جيد حتى نقف على معاناتها وليس على شكل الكتابة؛ فالمبدع فنياً لا علاقة له بالذكورة أو الأنوثة.. أي أن المرأة ليست ناقصة إبداعاً بدليل أن عدداً كبيراً من اللواتي أبدعن في السياسة، والأدب والثقافة ليس على مستوى الوطن

العربي حسب؛ إنما على المستوى العالمي، لأن الأدب وقع إنساني، أما الاختلاف كما قلت سابقاً فيتعلق بالمضمون الفكري لكل جنس.

إن النص الأدبي النسوي المعاصر في الجزائر أخذ مكانه في المشهد الثقافي العربي، وانتزع الجوائز، والمراتب الأولى سواء من خلال جيل السبعينات، وما بعده كالروائية والقاصة زهور ونيسي، المرحومة زليخة السعودي، مبروكة بوساحة، المرحومة صفية كتّو، آسيا جبار، أحلام مستغانمي، زينير جميلة، فضيلة الفاروق، ياسمينه صالح، ربيعة جلطي، جميلة طلباوي، نفيسة الأحرش، نوارة الأحرش، حسبية موساوي، مليكة مقدم، لطيفة عثمانى، جبالي، زهرة ديك، آمال بشير، زينب الأعوج التي فازت أخيراً بمسابقة نازك الملائكة للإبداع الأدبي النسوي الشعري في دورتها الرابعة بالعراق، والشابة الإعلامية الروائية هاجر قويدر التي فازت أخيراً بجائزة الطيب صالح للإبداع الروائي عن روايتها "نورس باشا" وهي واحدة من أهم جوائز الرواية في العالم... لكن في كل الحالات وفي مجتمع عربي إسلامي يحفظ للمرأة كرامتها وحقوقها، ويصونها كأنثى وكسيّدة مجتمع، وكأم، وكمرية ..

لا أقول : هناك خطوط حمراء، إنما هناك قيمٌ وتوجهات .. المرأة الحكيمة الواعية بدورها الحقيقي من تلقاء نفسها تلتزم بها، ولا

تتعدّاهما، وحتى وإن أُعطيت حريات بدون حدود فقد تكنفي بعضها.. إن الادعاء بأن المرأة لا تزال حقوقها مهضومة، وخاصة في عالم الكتابة والإبداع بزعم أن الرجل يقف في طريقها، نقول إن هذا الزعم باطل من أساسه..

في السرد العربي أيامنا هذه.. المبدعات العربيات وحتى المسلمات في غير بلاد العرب فقن الرجل، وبلغن مستوى عاليا سيّما في الرواية العربية، وتحصّل بعضهن على أحسن الجوائز، واحتلال الرتب الأولى.. إنما ما يُعاب على بعضهن أن يسعين وياصرار على الاشتغال بالأدب الإيروتيكي، وتكسير الطابوهات بدعوى ممارسة الحرية في الكتابة، لأن الكتابة تنطلق من حرية الكاتب في قول ما يؤمن به، وما يدعو إليه دون قريب. الجدل لا يزال مستمرًا، وسيبقى حول وجود أدب نسائي، وأدب رجالي لأن العديد من المبدعات العربيات والجزائريات يرين أن النص النسوي له خصوصياته، والنص الرجولي له خصوصياته.. والقارئ الذكي وحده يميّز ما بين النصين حتى وإن قدم له النص الإبداعي خلوا من اسم كاتبه. ولا يمكن أبدا التوحيد بين ما تؤمن به وتفطر به المرأة وما يفكر به الرجل ويدعو إليه، وكأن هؤلاء يتماهين مع ما قالتها الكاتبة جيني هيريكورت قبل مئة

عام:» سادتي لا أستطيع أن أكتب إلا كامرأة بما أن لي شرف كوني
امرأة «

شخصيا ومن خلال تجربتي الإبداعية، وخبرتي .. وقراءاتي
الكثيرة للنصوص الذكورية والأنثوية أرى أن الملامح الأنثوية المنتجة
للنص الأدبي لا تنتقص من قيمته الفنية البتة، ويجب في رأيي ألا تكون
مقياسًا يُصنّف الأدب بسببه إلى أدب نسوي، وأدب ذكوري لأن
ذلك عمليا لا يخدم القيمة الفنية للنص الأدبي المنتج، بل هو تصنيف
نظري أكثر، ولعلنا إن أخفينا في بعض الإبداعات هوية منتجة النص
الأدبي تماما، أو استبدلنا اسم الأنثى باسم ذكر لما تنبّه المتلقي لذلك،
فالنص المميّز ذو المقومات الإبداعية الراقية يفرض نفسه بغضّ النظر
عن جنس منتجه .. الاختلاف فقط يكمن في أن الرجل في نصوصه
يغوص في الفضاءات المعرفية المتنوعة يوظفها لخدمة نصّه كالتاريخ،
والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والاقتصاد، والمعلوماتية، والحروب،
وعلم النفس وتفرعاته .. بينما الأنثى غالبا ما تنكفي في عالمها الخاص،
وتطلعها إلى الحرية، ومقاومتها للرجل، وتنديدها بالحدود الحمراء التي
فرضها، ويفرضها المجتمع عليها، وعلى بنات جنسه عندنا.

مصائبُ أضواءِ

الشاعر الكبير حمري بحري يُحتفى به، ويُكرّم في الوادي

الشاعر والكاتب حمري بحري كان ضيف شرف في الملتقى الوطني السابع للشعر الفصيح بمدينة الوادي الذي امتدّت فعالياته لمدة ثلاثة أيام: 28، 29، 30 أبريل 2015، والذي كان موضوعه الرئيس " المديح النبوي في الشعر الجزائري".

كانت جلسة الاحتتام مساء يوم الخميس 30 أبريل بالمركز الثقافي بمدينة قمار في قاعة المتحف حيث كانت الجلسة شبيهة بعرس ثقافي ديكوره القاعة المستديرة التراثية التي تعلوها القبة الصحراوية، والجدران الجبسية التي تنضح بلمسات العمارة الصحراوية، والحضور من شعراء ومثقفين محليين برفقتهم الدكتور حسن مرموري مدير الثقافة بالولاية، ومدراء تنفيذيين ولائيين آخرين؛ إلى جانب المطربين والعازفين: المطرب العازف على العود الأستاذ عبد الرحمن غزال، العازف الملحن على العود الملحن الأستاذ الجامعي لطفي حمدان.

كما كان حضور الشعراء من ولايات الوطن مميّزا من ولاية
تُنراست وتيارت، والمسيلة، وتبسة، إلى الجلفة، ومستغانم، ووهران،
البويرة... كما كان الشعر التونسي والمغربي حاضرا ممثلا بشاعرة
متميزة من المغرب، وشعراء وشاعرة من تونس.. كان الملتقى السابع
للشعر مغاربيا بحقّ.

في هذه القاعة ذات النمط المعماري الصحراوي كانت جلسة
الاختتام حيث تماهى فيها الجمال المكاني، والبهاء الصحراوي، وترافق
فيها الإلقاء الشعري الفصيح والشعبي، العمودي، ذو التفعيلة ،
بالعزف العزف الإلقاء الشعري، وبين هذا وذاك كان العندليب عبد
الرحمن غزال بعوده، وبرفقة العازف لطفي حمدان يمتع الحضور
بوصلات غنائية من الطرب الأصيل.

مما رَسّمته مديرية الثقافة بالوادي في كل ملتقى شعري أن يكون
هناك ضيفُ شرفٍ له باعٌ طويل في الإبداع الأدبي الجزائري، أو العربي
يُحتفى به ويُكرّم في هذه الجلسة الختامية للملتقى؛ فعلى سبيل الذكر
كان ضيف الشرف في الملتقى السادس للشعر الفصيح في السنة
الماضية 2014 الشاعر الكبير رفعة سلام من مصر العربية.

في ملتقى هذه السنة 2015 كان ضيف الشرف الأستاذ القدير المرّي، الشاعر، الإعلامي، الكاتب حمري بحري أصيل مدينة " سور الغزلان " الذي يُعدّ قامة من قامات الثقافة الجزائرية المعاصرة ، وكان ولا يزال من جيل المثقفين والمبدعين الذين حملوا همّ الوطن بعد الاستقلال، وخاصة في مرحلة السبعينيات والثمانينيات لم تجنّدت تلکم النخب لترسيخ اللغة العربية، وكذا الدفاع عن هوية الأمة الجزائرية من خلال المنابر الثقافية والإعلامية، والتي كان الكلّ فيها مجنّدا من أجل ذلك، والأستاذ حمري بحري كان ضمن هؤلاء الذين صنعوا فضاءات جميلة للتواصل، والتلاقي، وتنظيم الملتقيات، والندوات الفكرية، والحوارات الفكرية العميقة في المشهد الثقافي الجزائري والعربي.

فضاءات كانت ولا تزال في الذاكرة الثقافية الجزائري مصابيح للتنوير الفكري كمقهى اللوتس بشارع ديدوش مراد، وقاعة المقار، وقاعة الجامعة المركزية بالنفق الجامعي بالعاصمة، واتحاد الكُتّاب الجزائريين، إضافة إلى اليوميات التي كان لا يخلو منها عدد من الملفّ الثقافي كيومية الشعب، النصر، الجمهورية، ومجلة آمال، الثقافة، المجاهد الأسبوعي ..

هذه الفضاءات الثقافية والإعلامية شهدت قلم الأستاذ حمري بحري بما نشر أجمل إبداعاته الشعرية، وأعمق مقالاته الفكرية، فكان قامة فكرية، وكان شاهداً وثيقة ثمينة دوّنت المسار الثقافي لتلك المرحلة. حمري بحري لم يُقعد التقاعد عن الاستمرار في الكتابة، وتشريح الراهن الثقافي والسياسي الجزائري والعربي بقدره الكاتب المتمرس، والجراح الخبير، ومن يتبغي الاطلاع على ما يكتبه وينشره عليه بموقع " أصوات الشمال " ، كما سيجد أغلب ما نشره وينشره بمجرد كتابة " حمري بحري " في أعلى أيّ متصفحٍ بالشبكة العنكبوتية.

تثميناً لهذه المسيرة الشعرية الثقافية، لا عجب عندما يُرحّب به ويُكرّم في ملتقى الشعر الفصيح كضيف شرف عندما يقف أمام الحضور تعريفاً به، وبسيرته، وبمساهماته الفكرية وإصداراته، ويُلقى كلمته التي أثنى فيها على كل من ساهم وشارك في هذا الاصطفاء له ممن بين الكثير من أمثاله، إلا أنّ الذي أثار في الحاضرين، بل أبكى بعضهم لما أعلن بمرارة وفرحٍ معاً، المرارة أنه لم يُكرّم في حياته من أيّ جهة رغم هذا المسار الثقافي الإبداعي الطويل ، والفرحة عندما يُكرّم في ولاية جنوبية شرقية هي ولاية الوادي التي تنعدم فيها حساسيات الهوية الجهوية واللغوية؛ المعيار الوحيد انتماء الجميع للوطن الواحد "

الجزائر " والكل في خندق واحد هو الدفاع عن الهوية الجزائرية الواحدة الموحّدة، والتمسك بلغة القرآن، اللغة العربية، والعمل على ترسيخها، وعصرنتها، وتطويرها بالتواصل بالثقافات الأخرى، واللغات العالمية الأخرى. عقب كلمته المؤثرة تلك وقف له الجميع تقديرا واحتراما، وتثمينا لقامة فكرية أعطت الكثير للوطن، وللثقافة، فكان المقابل التجاهل والتناسي.. الوادي ونخبها الثقافية والإبداعية وفيه وحاضنة للجميع..

نموذج من كتابات الأستاذ حمري بحري في مقال يبرز فيه رؤيته للشعر، (وهو الشاعر) :

(الشعر أرقى أنواع التعبير عندنا وعند غيرنا من الأمم الأخرى) : « ماذا يقاوم الشعر اليوم ، اذا لم يقاوم الفساد السياسي بمختلف أشكاله في الوطن العربي. كان الشعر ولازال يعتبر أرقى أنواع التعبير عندنا وعند غيرنا من الأمم الأخرى، ففيه تبلغ اللغة مداها، في شحن الكلمات، واخراجها من صياغاتها المألوفة، ليمنحها القدرة على تشكيل واعادة تشكيل طريقة القول المخالف، الذي يفتح في الذهن بشكل مفاجئ، المعنى الذي تولده الصور، لأن الشعر في حقيقة الأمر، هو التعبير بالصور، التي تشكل في ذهن القارئ أو السامع ،

فكرة تقود الى فكرة أخرى ، وكلمة شعر جاءت من الشعور الذي تتركه القصيدة فينا، من أحاسيس تغيرنا من الداخل، وتدفع بنا الى رؤية ما لم يكن في الحسبان، بمعنى أن الشعر، ما لم يحركنا من الداخل، فهو ليس بشعر. هكذا يبدو لي أن مهمة الشعر، هي شحن مشاعر الناس، بالحب والمثل النبيلة، واخراجهم من ساحة الترويض، التي تتبدل فيها الحواس، الى ساحة التحريض، على الأوضاع القائمة المسكونة بالفساد، وصناع الفساد في عالمنا العربي، وهذا هو دور الشعر، وهو النزول الى انشغالات الناس وهمومهم... وهم في شتى أوضاعهم ...

ومن هنا يمكن أن نطلق على هذا الشعر، شعر المقاومة . الشعر تعبير عن الذات، وعن ما هو خارج الذات أيضا، وقد تنسكب ذات الشاعر، في ذوات الآخرين ليفتح أعينهم عن واقع غير متوقع ، لم يكن في حسابهم ، أو هذا ما كان يود أن يقوله كل واحد منهم في قرارة نفسه، صحيح أن الشعر كشف لطرقات النفس المظلمة، وهو أيضا كشف لشرور الانسان الذي يرى المتعة في الحاق الأذى بالآخرين لكي يكون الشعر مقاوما، عليه أن يكون محرضا، لأن المقاومة، رد فعل على فعل سابق، كان ما كان هذا الفعل. غير أن مفهوم المقاومة ضل مفهوما تقليديا ، وهو محاربة المستعمر، وبقي

منحصرا في هذا الفهم، في عالمنا العربي، وعلى هذا الأساس، كان الشعر العربي على مدار النصف الأول من القرن الماضي، شعر مقاومة في بعض منه، بالمفهوم التقليدي، وهو مقاومة المستعمر.

الشعر العربي اليوم، انتقل من فعل المقاومة، الى فعل المساومة، وهو يساهم اليوم في تعقيم حواس الناس بإيغاله في الغموض والابهام وتسطيح القصيدة من أي فكرة، تتجول في القصيدة طولا وعرضا ولا تفهم ما أراد الشاعر أن يقوله للناس، الشعر فن، والفن رسالة، والرسالة تتطلب الوضوح، حتى يفهمها المتلقي ...

ماذا يقاوم الشعر اليوم، اذا لم يقاوم الفساد السياسي بمختلف أشكاله في الوطن العربي، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نعيد النظر في مفهوم المقاومة ، ونحررها من قيدها لتتجاوز نفسها الى ما هو أوسع وأشمل في حياتنا اليومية ... ثم ألا تحتاج مظاهر الفساد الى مقاومة تتجلى فيما يكتبه الكتاب من شعر وقصة ورواية.

حمري بحري : حمري بحري البحر الهادئ هو كاتب وشاعر وصحفي جزائري (13 مارس 1947) بسور الغزلان ولاية البويرة، ولد في بيئة ريفية، وفي أسرة محافظة؛ في وسط عدد كبير من الإخوة والأخوات في بيت بسيط. درس في الكتاتيب، ثم المدارس الحرّة ، وفي

عام 1962 التحق بثانوية عبان رمضان، وأكمل التعليم الثانوي بها ليلتحق بالمدرسة العليا للأساتذة ويتخرّج سنة 1974 حيث مارس التدريس، ثم التحق بالصحافة. بالإضافة إلى عمله في التعليم وفي الصحافة الجزائرية، مثل الجزائر في كثير من المهرجانات والتظاهرات، وقد قدم للثقافة الجزائرية خدمات جليلة، ولا يزال.

مؤلفاته

1. ما ذنب المسمار يا خشية / شعر
2. أجراس القرنفل (شعر)
3. الرّجم بالكلام / مقالات سياسية
4. الكتابة بماء الخشب والكتابة بماء الذهب/مقالات سياسية
5. دراويش الحدائة.. دراويش السياسة/ مقالات سياسية
6. مسالك الكلام

الرحالة إيزابيل إبراهيماردت.. عاشقة " وادي سُوف "

ما قبل البدء

هي الفتاة التي وجدت في الجزائر جنّتها الأرضية، ووطنها المفقود، فاعتنقت دينها الإسلاميّ الحنيفَ وساندتها في تعرية بشاعة الاستعمار الفرنسي، وساهمت في ثقافتها، وكل هذا بنشاطها، وبقلمها الجريء، وأسلوبها الرومانسي الدافئ تارة، والساخِر تارة أخرى، وهذا ما نستشفّه من كتاباتها، ومراسلاتها الصحفية بجريدتي (الأخبار) و(لاديباش أجرين). كانت إيزابيل إبراهيماردت من أكثر نساء جيلها تحرّرا. تقول عنها الباحثة جوليات ستيفنسون:

« إنّها كانت الهيبي الأول في التاريخ، كانت تسافر بدون مال، وتعيش بحسب يومها؛ لم يكن لها أيُّ مبدأٍ له قيمة بالنسبة لها.

كانت تدخن العفيون، والكيف، وتلبس مثل الرجال ». رغم أن هذه الرحالة، الكاتبة توفيت صغيرة لا يتعدى عمرها 27 عاما، إلا أنّ حياتها كانت حافلة بالأحداث، والإنجازات، والمغامرات

البداء

عشقت إيزابيل إبراهيمت الوادي" وادي سوف" الرابضة في الجنوب الشرقي الجزائري.. عشقت " سُوفُ " ونخيلها، وكشائها الرملية، وأزقتها وآبارها، وساحاتها، ومآذنها، وإبلها فجاءت كلُّها صورا متناسقة منسجمة في كتاباتها عن الوادي، كما كانت واضحة جليّة في ذهنها ومخيّلتها .

لقد بلغ عشقُ إيزابيل للوادي حتى أن الذين عاشوا حياتهم كلها في هذه المدينة لا يمكن أن ينافسوها في معرفتها لها، واطلاعها على آتفه الجزئيات، والدقائق في الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والروحية لهذه المدينة حينذاك وهي التي أطلقت على مدينة الوادي : " مدينة الألف قبة وقبة " .

لقد عرفت إيزابيل عن سُوفُ خيرها وشرها، جدّها وهزلها، عفتها، وفجورها، عاداتها وتقاليدها. عرفت من أهلها صدقهم وكذبهم، غدرهم وإخلاصهم، صداقتهم وعداوتهم.. كل ذلك سجّلته في نصوص سردية جميلة أشبه بلوحات تشكيلية في غاية الجمال . وصلت إلى مدينة الوادي يوم: 4 أغسطس 1899 بتكليف مهمة من طرف (المركز دوموراس - رطزي) للتحقيق في قتل زوجها في سنة

1895 على الحدود الجزائرية - التونسية - الليبية . وبعد المضايقات التي حاصرتها من طرف الإدارة العسكرية التي كانت تصفها بالعين الشريرة، وعلقت عليها قائلة: « إن هذه المرأة الروسية بالاسم الألماني وبالزبيّ الرجالي (زي الفرسان)، والتي تعاشر القبائل، وترسم، وتكتب لاشكّ أنّها ميتودية أو جاسوسة ! »

فغادرت إيزابيل إبراهيم الوادي بعد خمسة عشر يومًا من قدومها، ثم رجعت إليه يوم 2 أغسطس 1900 باسم مستعار هو (محمود السعدي)، برغبة الإقامة الدائمة، لانبهارها بطبيعة المنطقة وجمال عمراتها، وحسن أخلاق أهلها، وأقامت بمسكن شعبي وكتبت تقول:

« إنني بعيدة عن العالم، والحضارة ! ومهازلها المنافقة، إنني وحدي في دار الإسلام في الصحراء حرة، وفي أحوال صحية جيدة... الوادي، البلد الذي لا تُعدُّ قبابه، هي البلدة الوحيدة التي أقبلُ العيش فيها للأبد، دائمًا. أريد شراء أرض صالحة للزراعة، وأجعل فيها جنانا وبثراً ونخلًا. »

ثم بعد هذا اشترت إيزابيل حصانًا، وأطلقت عليه اسم (سوف)، وبدأت في رحلتها الطويلة في المنطقة، وتعرفت فيما بعد

على الرقيب (الصبايحي سليمان هني)، والذي أصبح رفيقها في الحياة، حيث تزوجا طبقاً للشريعة الإسلامية في الزاوية القادرية بالوادي، وتم العقد لإيزابيل باسم عربي هو مريم، وهو الاسم الذي كانت تُوقَّع به بعض رسائلها، وكتبت عن زوجها سليمان :

« اللهُ قد أشفق علي، لأنه استجاب لدعائي، وأعطاني الرفيقَ الأمثل الذي كنت دائماً أرغب فيه، والذي دونه كانت حياتي ستكون مفككة وحرزينة.»

إيزابيل الضحية

في 29 يناير 1901 تعرضت لحادث أليم، وعنيف في منطقة، (البهيمية) شمال مدينة الوادي من طرف شاب يدعى "عبدالله بن محمد" من الطريقة التيجانية، الذي وجّه لها ضربة سيف أصابها في الذراع، إصابة خطيرة، بدعوى إهانتها للإسلام، عند تشبهها بالرجال، وفي تقمصها لزيّ الفرسان العرب، وعدم احترامها للشريعة التي تُحرّم ذلك، وهذا دون النظر إلى دوافعها في ذلك، وأحوال البلد الغارقة في الخوف والرعب، هذه الضربة أقعدتها في مستشفى الوادي أربعين يوماً، ومع ذلك فثناء المحاكمة أشفقت على الشاب عبدالله لأنها علمت أن مدبري الجريمة، هم من عملاء الإدارة (بيرو عرب)، ودافعت عنه أمام

محكمة قسنطينة في 18 يونيو 1901، ومع كل ذلك، فقد حكمت المحكمة على عبد الله بالأشغال الشاقة، وعلى إيزابيل بالنفي كشخص أجنبي، وكان حُكمًا قاسيًا وعنصريًا لكليهما من قبل القضاء الفرنسي العسكري، وتأسفت إيزابيل على قسوة الحكم علانية، وكتبت خواتمها نحو الرجل:

« إنني بحثت في عمق قلبي عن الحقد نحو هذا الرجل، فلم أجده، ولا الكره كذلك»، وفي رسالة بتاريخ 7 يونيو 1901 إلى جريدة (لاديباش الجريان) قالت فيها :

« لا يا سيدي المدير، إنني لست سياسية ولا عميلة لأي حزب ما، لأنني لا أراهم إلا مغرورين في نضالهم، إنني أريد العيش بعيدًا عن العالم المتحضر!! أريد حياة حرة وبدوية وهذا حلمي، لأجل أن أنقل كل ما أراه، وأنقل قشعريرة الحزن والسحر الذي أحسّ به أمام العظام المحزنة للصحراء، هذا كل ما في الأمر.» وأثناء إقامتها في الوادي، التي دامت ستة أشهر، قامت بأعمال خيرية وإنسانية، حيث كتبت في الرسالة ذاتها:

«.. بعد حادث الاعتداء من قبل المسمى عبد الله بن محمد، لقد قلت في رسالتي الأولى إن أهل (سوف)، ومريدي الطريقة القادرية، وكذلك

الطريقة التيجانية قد أظهروا بالغ حزنهم العميق، وكامل تأثرهم بعد ما علموا بالحادث المؤلم الذي تعرضت له خلال محاولة الاغتيال النكراء، لذا فأنا مُدنية لهؤلاء من أهل وادي سوف الطيبين، وما يتصفون به من حنان، ومودة، وإخاء غمروني به خلال استطاعتي في معالجة السكان، بما لي من معرفة في الطب، من أمراض العيون المختلفة كالرمد، وأمراض أخرى منتشرة في الناحية، لقد وهبت نفسي لعمل الخير، وخير الإنسانية في كل مكان أوجد فيه..»

يوميات تنبض بسيرة الحياة

من يوميات بتاريخ: 05 / 11 / 1901 وهي على وشك الرحيل

من الوادي، تسجل مدة بقائها في الوادي، إذ تقول:

« أتذكر الوادي.. أتذكر البيت العزيز المجاور للكثبان الذرورية.. لا زلتُ هناك في المدينة الفريدة.»، « من المحتمل جدا أن أسافر مع قافلة 22 ، يعني بعد سبعة عشر يوما وسينتهي كل شيء ، ربّما إلى الأبد. ولن يبقى لي من حياة الستة أشهر هذه إلاّ الذكرى اللطيفة،

الحزينة، والحين اللامتناهي.» [1]

عاشقة سُوف

لأنها تعلقت بالصحراء الجزائرية، وبخاصة ربوع وادي سُوف

الذي عشقته وهامت به، وهي منْ أطلقت على مدينة الوادي (مدينة

الألف قبة وقبة). عاشت سنوات بهذه الربوع، واختلطت بأهلها، وعاشت معهم، واختلطت بهم، ولبست لباسهم. وتحدثت عن جمال سوف الحالم وطبيعتها الأخاذة، عن ضوئها ونورها، عن شمسها المتوجهة، وليلها الحالم ومساءاتها التي لا يشبها أي مساء في المعمورة، وعن كتاباتها، وغيطاتها، ورسمت بقلمها لوحة بديعة لهذا الجمال بريشة فنانة ماهرة.

من يومياتها المؤرخة في 18 جانفي 1901 :

«...أنا هنا منذ زمن طويل، والبلد أخذُ جدًّا، وبسيط جدًّا، بتلك الرتابة المخيفة التي تعطيني الشعور بأنّ تعلقي به ليس ضربًا من الخيال العابر، أو الأخلاقي.. لا بكل تأكيد ليس هناك مكان آخر من الأرض سحرني وفتني مثل الوحشة المتحركة في المحيط الكبير الجاف الذي يمتدّ من سهول ” قمار ” الحجرية، ومضاحل شط ” الملغيري ” اللعينة إلى الصحاري العطشى في ” سيناون ”، و ” غدامس “. [2]»، وفي موضع آخر من خاطرة لها بعنوان ” ساعة صلاة المغرب ” تقول: «..هكذا أول نظرة لي على الوادي، كانت اكتشافا تاما ونهائيا لهذا البلد الفظّ ، والبهيّ الذي هو ” سُوفُ ” لجماله الغريب، ولحزنه الكبير أيضا.. كان ذلك في أوت 1899 ، ذات أمسية دافئة، هادئة، وأنا

آتية من تقرت بعد قيلولة تحت ظلال حدائق واحة ” أورماس
» . [3]

كتاباتها عن ربوع وادي سُوف

« سيدي مرغني هو ممرٌ ضيقٌ بين كَثييين رماديين بمدخل وادٍ مزروعٍ
بالنخيل أين تختبئ مجموعة صغيرة من المنازل الفقيرة الآيلة للسقوط،
المبنية من الحجر الرمادي الخام بنفس لون الصحراء، والتي عوض
السقوف تعلوها قبابٌ صغيرة تجعلك في ” سُوف ” يختلط عليك أفق
المدينة بأفق الكثبان الرملية .. تسكن هذه الدشرة قبيلةً بربريةً قدمت
من الشمال منذ زمنٍ طويلٍ ، وبقيت محافظة على تقاليدها، ولهجتها
الشّاوية .. من على الكثبان الرملية يفتح الأفق فسيحًا جدًّا ، وأزرق
جدًّا، ونحو الشرق ترى بحرًا هائجًا وجامدًا ، كثبان وكثبان على مرمى
البصر بعضها قممه حادة ، وبعضها الآخر قممه مسطحة .. هنا
وهناك عبر الرمل الذهبي نقاط سوداء متناثرة : إنها حدائق نحو
الغرب، سهلٌ فسيحٌ أدكن أين تتناثر القباب أيضًا ، وعلى جانبي
الدروب المبهمة قبور متعدرة الحصر ، مبنوثة هكذا دون ترتيب، ودون
حائطٍ واقٍ، دون أيّ زينة ، ولا خوفٍ .» [4]

«... كثبان بلا لون ، متراكمة ، متراصّة ، متموّجة تتغيّر مسحاتها في كل ساعة ، تكابد جميع تغيّرات النور ، لكنها جامدة ، وكأنها نائمة في حُلْمٍ أبديّ تحتضن القصر العديم اللون الذي تُواصل قبائمه المتعدّرة الحصر إرغاءها المتناهي ..شوارع صغيرة ضيّقة ملتوية، تُحاذيها منازل قديمة من الجبس، تقطعها أطلالٌ ، أو يمرُّ أحياناً ظلُّ نخلة نحيفٌ فوق الأشياء الخاضعة هي أيضاً للنور.. ساحات صغيرة تؤدي إلى دروب صامتة تنفتح في خيبة على الصحراء الفسيحة المتأجّجة ..برجٌ ناصع البياض معزول وسط الرمال ، والذي من على شرفته ترى تموج الكثبان اللامتناهي ، وفي الحُفر العميقة محمّل النخيل الأسود

[5]«...»

«... الصيف صيف، وأحياناً يتسلّان خارج المدينة في الليالي المقمرة ، ينزلان إلى أسفل الهضبة التي شُيّدت فوقها مدينة الوادي نحو متاهة الكثبان الرملية التي تُواري في طياتها الرمادية الحدائق العميقة التي تجتذب ، وتضخّ برودة المياه الباطنية في أسفل الحُفر الكبيرة التي تشبه الأقماع العملاقة ..عادة ما يختاران الغيطان المهجورة المجاورة لطريق ” الدبيلة ”، وهناك يتمدّدان على بُرنس عبد القادر الملقى على الرمل، والذي يوقّر لهما ساعتها سريراً ملكياً أحمر، فيتأملان ظلال

النخيل الرقيقة وهي تتلاعب على الرمل الأبيض تحركها الريح الباردة، ربح " سوف " الأبدية ، كما يتأملان أشعة القمر، وهي تتسلل خلف الجذوع المتمايلة، وبين عراجين التمر المصفرة، ويستمعان لهمس الجريد، وكأنه صوت أمواج بحرية. « [6] ..تعصف رياح " الشهيلي " ، ويسود صمتٌ كثيبٌ منطقة " سوف " الناعسة .يغمر ضبابٌ رمادي السماء، ومن الكثبان الباهتة اللون يظلّ الغبار ينهمر إلى ما لا نهاية كالأموج الخفيفة لبحرٍ تداعبها الريح .« [7]

الوجه الآخر لإيزابيل إبراهيم

تستنكر الاحتلال, الذي يناقض شعارات الثقافة الغربية, التي ينتمي إليها الاحتلال, فتكتب:
« لماذا أتوا بحضارتهم الفاسدة, وأدخلوها لهذا البلد؟ أين هي حضارة الذوق والفن، والفكر، التي لدى النخبة الأوروبية ؟! ». كانت ضد ظلم، وتعسف أصحاب السلطة الفرنسيين من ضباط، وإداريين، وأعوانهم المحليين للأهالي . في قصة النقيب تفضح سلوك العسكريين وهنجعيتهم، وسخريتهم، واحتقارهم للأهالي:

« - أيًا كانوا فإن الأهالي مجبرون على تحية كل الضباط ، يقول القبطان ” مالي ” ، متصلّب، ومتشدّد في المهنة مثل الجندي القناص ” رزقي “ - آمرک (الطيب جاك) بالالتزام بعدم القرب من هؤلاء الناس، وتركهم في مكانتهم الحقيقية.. الصرامة دائما دون تماون.. ذلك هو السبيل الوحيد لترويضهم.» [8].

«... حاول (جاك الطيب) في البداية أن يتكلم في مطعم الضباط، إلا أنه اصطدم بالانحياز الراسخ، والعقيدة الصادقة، والعنيدة لهؤلاء الناس (الضباط)، وخاصة ما جعله يكفّ عن الكلام، لتهمهم، واستخفافهم.»

« لا زلتَ شابا أيها الطيب، وتجهل كل شيء عن هذا البلد، وعن هؤلاء الأهالي.. حين تعرفهم، ستقول عنهم مثلما نقول.» قال القبطان هذه العبارات بنبرة تحكمية جعلت جاك يشعر ببرودة مُحيفة تسري في جسمه. [9]، ويتعالٍ أكثر يخاطب القبطان الطيب بصرامة:

« - نحن هنا لنرفع العلم الفرنسي عاليا بصرامة؛ وأعتقد أننا نؤدي واجبنا بإخلاص كعسكريين، وكمواطنين، وأيّ تصرّفٍ آخر يصبح تخليا عن الواجب. نحن عسكريون، عسكريون فقط. أردتُ أن أحذرك...» [10]

كلّ ما في الجزائر جمالٌ وأصالة

كانت تدون يوميات عن تحركاتها، ورحلاتها، ولقاءاتها بالسكان، وتصف بدقة كل ما تقوم به، أو تراه .. كتاباتها تتميز عن غيرها من الضباط الفرنسيين الذين نظروا إلى الأهالي نظرة احتقار، ورأوا فيهم إلا التخلف، والجهل، كتبوا بنزعة استعمارية عدوانية، ركّزوا إلا على الحياة الرتيبة، الجامدة، الخالية من الحركية، والشعور بالجمالية، والنظرة التفاضلية.

رأت هي أن كل ما في الجزائر يومذاك أرضا، وطبيعة، وإنسانا هو جمالٌ وأصالة. كتاباتها سلسلة تتفتق من خيال واسع، وتتوشح بالجمالية.. لغة إبداعية أدبية جميلة. كاتبة تصف حياة المواطنين يومذاك بكل صدق لأنها عاشت بينهم، تحدثت عن كل طبقاتهم الاجتماعية خاصة الفقيرة، والبسيطة، تحدثت عن نشاطاتهم اليومية، عن شعائرهم الدينية، عن عاداتهم وتقاليدهم؛ لأنها كانت سريعة الاندماج مع السكان أينما حلّت، تعيش معهم، تقاسمهم يومياتهم، فكانت كتابتها صادقة. حلّت الرحالة الصحفية الكاتبة الأدبية وادي سوف الذي عشقته، وهامت به في 04 أوت 1899 لتغادره دون

رجعة يوم 25 فيفري 1901 إذ في يومياتها بتاريخ 08 / 07 / 1901

بعنوان: (الرحيل عن الوادي يوم 1901/02/25):

« ذهببت صحبة الطبيب حتى ” تغزوت ” من هناك اتجهنا إلى بيت الشيخ الحسين. قضيتُ الليلة هناك. يوم 1901/02/26 على الساعة 08 انطلقنا رفقة لخضر الدائرة لنتحقق بباقي القافلة المتوغّلة بين الكشبان...» [11]

إحالات

- [1] - إيزابيل إبراهيمارتد : عودة العاشق المنفي. ترجمة الأستاذ عبد القادر ميهي. مطبعة الوليد. الوادي . 2006ص41
- [2] - عودة العاشق المنفي (مرجع سابق) ص 62
- [3] - المرجع السابق. ص 127
- [4] - إيزابيل إبراهيمارتد .من قصة ” تحت النير ” مجموعة تاعليت . ص 83 ترجمة ميهي عبد القادر . مطبعة مزوار بالوادي.2009
- [5] - من قصة ” النقيب ص 62 المرجع السابق .
- [6] - من قصة تحت النير ..ص 88 مجموعة تاعليت .مرجع سابق
- [7] - من قصة النير .. ص 89 .مجموعة تاعليت
- [8] - إيزابيل إبراهيمارتد .قصة النقيب من مجموعة :تاعليت .مجموعة قصصية .ترجمة ميهي عبد القادر . مطبعة مزوار . الوادي 2009 ص 64
- [9] - قصة النقيب .ص 68
- [10] - قصة النقيب .ص 74
- [11] عودة العاشق المنفي ص 53 (مرجع سابق)

تحت دائرة الضوء قراءات

فصول من بلاغة الرمل

عنوان الكتاب: بلاغة الرمل.. دراسة تحليلية في النتاج الأدبي

بـالـوادي".
تأليف: الدكتور عادل امحلو

عدد الصفحات: 127
إصدار: دار الثقافة بالوادي

بقلم : بشير خلف

منطقة وادي سؤف منذ الاستقلال شهدت، وتشهد حركة ثقافية متميزة بفضل علمائها، ومثقفوها، وقد تزامنت منذ السبعينات بإصدار العديد من المؤلفات؛ إلا أن هذه الحركية برزت أكثر، ونشطت أكثر في السنوات الأخيرة، وساهم ويساهم فيها الكُتّاب والمبدعون الذين ازداد عددهم، وكذا القطاع الثقافي ممثلا في مديرية الثقافة بالولاية، ودار الثقافة بالوادي، والجمعيات الثقافية، وبعض المثقفين؛ مما أدى إلى ظهور العديد من الإصدارات سنويا ، خاصة الإبداعية من شعر وسرد، هذه الحركية بكلّ أسفٍ لم تواكبها حركة نقدية. لئن كانت وظيفة النقد الأدبي هي دراسة الأعمال الأدبية، والفنون وتفسيرها ،

وتحليلها ، وموازنتها بغيرها، والكشف عن القوة والضعف ، والجمال والقبح، وبيان قيمتها ودرجتها، في هذا النص، أو ذاك ؛ فإن الحركة الأدبية بوادي سُوف لم تواكبها حركة نقدية رغم هذا الزخم الكبير، والمتنوع من الإصدارات، والندوات الأدبية، والملتقيات، سيّما منها ملتقى الشعر الفصيح السنوي، الذي يشارك فيه عشرات الشعراء كل سنة من كل ربوع الجزائر، وخارجها.. حتى جامعة الوادي إن كانت بها دراسات نقدية لبعض الأعمال، فإن هذه الدراسات لم تبرح أسوارها، وبالتالي يمكن القول بأن النقد الأدبي في وادي سُوف، كما في غيره من الجزائر شبه معدوم، ولا يجاري الحركة الأدبية الإبداعية. غير أنّ هناك من أساتذة جامعة الوادي من أخذ مساراً مميّزاً في مسار النقد والأدبي باعتباره شاعراً مميّزاً لم يُعرف في منطقة الوادي فحسب، بل في منطقة المغرب العربي، وسجّل اسمه في الخريطة الشعرية العربية من خلال مشاركته في العديد من الندوات والملتقيات؛ ومن خلال عديد الدواوين الشعرية التي أصدرها.. هذا الأستاذ الشاعر الشاب إضافة إلى الإبداع الشعري توجّه إلى النقد الأدبي .

إنه الدكتور عادل المحلو الأستاذ بجامعة حمّة الأخضر بالوادي الذي صدر له قبل الكتاب الذي سنتعرّض له في هذه السطور كتاب

" علم الأصوات بين القدامى والمحدثين " وهو كتاب نقدي طبعه ونشره على حسابه الخاص سنة 2009 ، ثم كتابه النقدي الثاني: " المتن والمسار: دراسات في الأدب والنقد الجزائريين" صدر سنة 2011 عن مديرية الثقافة بالوادي ، ليصدر له الكتاب الثالث في النقد أيضا هذه السنة 2015، وقد عُرض في المعرض الدولي للكتاب هذه السنة، تحت عنوان " الشكل والدلالة " منشورات ضفاف بلبنان، ومنشورات الاختلاف بالجزائر، والكتاب الرابع صدر هذه الشهر نوفمبر 2015 عن دار الثقافة محمد الأمين العمودي بالوادي، بدعمٍ من محافظة المهرجان الشقافي المحلي للفنون والثقافات الشعبية لولاية الوادي، بعنوان : " فصول من بلاغة الرمل.. دراسة تحليلية في النتاج الأدبي بالوادي".

فصول من بلاغة الرمل .. دراسة تحليلية في النتاج الأدبي بالوادي

الكتاب من المقاس المتوسط، يقع في 127 صفحة في شكل جميل من حيث التصميم ، والتنضيد والإخراج، واختيار الخطوط؛ حيث صمّم الغلاف الفنان التشكيلي المبدع كمال خزّان، وقام بتنضيد الكتاب، واختيار خطوطه، وإخراجه فنياً المؤلف نفسه، طباعة مطبعة مزوار بمدينة الوادي.

مكُونات الكتاب: إهداء، تصدير للأستاذ محمد حامدي مدير دار الثقافة، مقدّمة.

. الفصل الأوّل من بلاغة الأدب السرديّ

. الفنّ والتحوّلات الاجتماعية

. تمزّق الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

. مُعجم الألوان في الكتابات الاستعمارية عن الصحراء الجزائرية

الفصل الثاني من بلاغة أدب الأطفال

. خصائص النصّ الناجح في شعر الأطفال

. الطفولة والوطن في الشعر الجزائري المعاصر

. الفصل الثالث من بلاغة الأدب الشعبيّ

. تجارب جمع الأدب الشفاهي بوادي سوف

. صراع الأجيال في الشعر الشعبي

إن هذه العناوين تُلفت نظر القارئ النبه إلى أن مضمون الكتاب

ثريٌّ جدًّا، ويمسّ العديد من القضايا الفكرية، والثقافية، والإبداعية

ليس في منطقة الوادي فحسب، من بلاغة الأدب السردّي في القصّ

العربي، فتمزّق الذات في الأدب المكتوب باللغة الفرنسية، وتوظيف

معجم الألوان في كتابات الأجانب عن الجنوب الجزائري، فأدب

الأطفال، وهو الموضوع الذي لا يزال يشغل بال المؤلف وهو الذي كان أوّل إصدار في " دراسات أدب الأطفال " رفقة الدكتور أحمد زغب سنة 2004.. ثم الوقوف عند الشعر الشعبي، وبعض شعرائه في ربوع وادي سُوف.

التصدير

الأستاذ محمد حامدي مدير دار الثقافة الذي ما فتئ يشجعُ كتاب ومبدعي الولاية، ويتولّى إصدار أعمالهم نوّه بهذا الكتاب، وثمن مثل هذه الأعمال النقدية التي ترصد وتقيم النتاجات الإبداعية والفكرية بالولاية:

« إنّ هذه الإصدارات تندرج في إطار الخطة العامة لوزارة الثقافة، وضمن الأهداف المسطرة للحفاظ على المنتج الثقافي الجزائري المادي واللامادي وتشجيع البحث فيه. وهي بذلك جزءٌ من المشهد العام الذي يصنعه قطاع الثقافة على المستوى الوطني لبناء ذاكرة وطنية تسعى إلى تنمية الفرد ذوقا ، ومعرفة، وانفتاحا على العالم مع الحفاظ على هويته بأبعادها الوطنيّة.

في هذا الكتاب: " فصول من بلاغة الرمل " يتابع المؤلف أوجها متعدّدة من المشهد الأدبي بالوادي، فيتحدّث عن السرد في الرواية والقصة، وعن أدب الأطفال، ثم الأدب الشعبي، فيغطي بذلك

مجالات مهمّة، وفضاءات فسيحة من الحركة الأدبية النشطة
بالوادي.» ص: 5

المقدمة

اهتمام الأستاذ الدكتور عادل محلّو بالنقد الأدبي ليس جديداً،
فبداية تتبعه، ورصده للنتاجات الأدبية الإبداعية في ربوع الوادي،
خاصة منطقة وادي سُوف كانت منذ ما ينيف عن الخمسة عشر سنة،
هذا التبع كان بمجموعة من المقالات منها ما تناول الشعر، ومنها ما
تناول السرد.

التوقّف عند الأدب المحلّي ليس شوفينية البتّة، وليس تقوقعاً ولا
عصبية بل هو ضرورة فرضتها وفرة النصوص، وكثرتها من سنة إلى
أخرى في هذه المنطقة الجنوبية الشرقية الجزائرية، كما أن هذا التوقّف
ناتج عن تداعيات الهامش والمركز، حيث لا تحظى إبداعات الجنوب،
بما في ذلك الوادي باهتمام كبير من النقاد والدارسين منذ الاستقلال
إلى يومنا هذا.

لكن لا نوافق الأستاذ عادل فيما ذهب إليه من أن من
الأسباب الموضوعية، والذاتية في عدم اهتمام النقاد هو عدم وصول
المادة المبدعة، وكذا تقصير أهل المنطقة في التواصل والتوصيل، بل

الأصحّ في رأينا هو النظرة الدونية لكل ما هو آتٍ من الجنوب كله، وليس الوادي. كما أن الساحة الثقافية الجزائرية تخلو من منابر نقدية جادة مستمرة، لها وجوهها في الساحة؛ هناك نقدٌ انطباعي شلّي متسرّع في بعض اليوميات. إن كان هناك نقدٌ لما يصدر في الجامعات من إبداعات شعرية وسردية، ومسرحية وغيرها، فهو رهين الحبس فيها، نادرا ما يستفيد منه القراء خارج الجامعة، ولا أحسب أن من في الجامعة يستفيدون منه طالما لا توجد مجالس، أو نوادي ثقافية بها:

« إنّ دراسة الأدب المحلي ليست تقوقعا ولا عصيّة؛ بل هي ضرورة ملحة استدعتها وفرة النصوص وغازرة الإصدارات. كما دفع إليها التوتر المائل أبدا بين المركز والهامش؛ حيث لا تحظى إبداعات الوادي باهتمام كبير بين النقاد والدارسين عموما لأسباب بعضها موضوعي يتعلّق بوصول المادة المُبدعة، وبعضها ذاتي يعود إلى تقصير أهل المنطقة في التواصل والتوصيل، أو إلى الانتقائية في عرض الإبداعات على أسس غير علميّة أو فنيّة.» ص: 7، 8

الفصل الأول : من بلاغة الأدب السردى

استنادا إلى الأدب السردى حلّل المؤلف في هذا الفصل ثلاثة مواضيع: الفن والتحوّلات الاجتماعية، تمزق الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، معجم الألوان في الكتابات الاستعمارية

عن الصحراء الجزائرية. غاص في المجموعة القصصية " أثمار الخريف " للمترجم والكاتب ميهي عبد القادر محملا لنصوصها التي استقى كاتبها مضامينها من حركية المجتمع السوفي أيام الاستعمار الفرنسي، وكذا خلال سنوات الاستقلال ، والتحوّل الذي طرأ على المجتمع السوفي، حيث الفن الإبداعي يجب أن يكون معبرا عن هذه التحوّلات المجتمعية ليس رسداً تاريخياً، إنما من أجل بعث الوعي والتنوير للفرد والجماعة: « يعرض لنا الكاتب الأستاذ ميهي عبد القادر في: " أزهار الخريف " . مؤلفه الإبداعيّ الأوّل له بعد عدّة ترجمات . نماذج بشرية شتّى متّبعاً مسار تطوّر المجتمع الجزائري الحديث وتحوّلاته منذ المرحلة الاستعمارية حتى اليوم.» ص : 13.

« تشكّل علاقة الفنّ بالمجتمع موضوعاً شائكاً؛ فنحن نعتبر الفنّان شخصاً غير عاديّ، وغير خاضع للمعايير التي يسير عليها بقية أفراد مجتمعه، بينما . في الوقت عينه . يُقْبَل هؤلاء الآخرون على الأعمال الفنية التي ينتجها ويعدّونها تعبيراً دقيقاً عنهم، ويجدون فيها ما يضمّد جراح أرواحهم، وما يقول بصوت عالٍ ما لا يستطيعون البوح به. إنّ الفنّ على هذا الأساس تجريد للواقع، وتعبير غير آليّ عنه؛ إنّها صياغة مختلفة للمشاكل التي نألفها، وللمشاعر التي نعيشها.» ص : 14

مسألة الهوية المتشظية لدى الكُتّاب والمبدعين العرب الذين كتبوا ويكتبون باللغات الأجنبية سيّما الفرنسية قضية تؤرقهم حتى وإن لم يعترفوا صراحة بذلك، فإذا كان المرحوم مالك حدّاد ارتأى أنّ منفاه في اللغة الفرنسية، فإن رشيد بوجدرّة يتأرجح بين اللغتين العربية والفرنسية، مثل العديد من الروائيين المغاربة الذين يكتبون باللغة الفرنسية، ومضامين كتاباتهم ، لم تتخلص من جذورهم، وحتى الآخرون في الضفّة الأخرى لم يتقبّلوهم ككتاب فرنسيين رغم إقامتهم الدائمة بين ظهرانيهم.

هذا التشظّي، وذلكم التمزّق مبعثه الصراع مع الهوية المقسّمة بين التوجه نحو الغرب، أو التمسك بالجذور. فقضية الهوية إن كانت الرواية المشرقية لدى بعض الروائيين تطرقت إليها كهجرة في الغرب؛ فإن الرواية المغربية أغلبها طرق، ويطرق الهوية، فالحضور الغربي متواجد في أغلب النصوص السردية الروائية ، وهذا نتيجة طبيعة الاستعمار الفرنسي البشع الذي عمل باستماتة على مسح الهوية العربية الإسلامية للمغرب العربي، وخاصة الجزائر.

« ولعلّ من أبرز خصوصيات تناول الرواية المغربية لمسألة الهوية هي حضور الغربيّ داخل البيئة المغربية بينما تتجّه الروايات المشرقيّة إلى

تصوير البطل مهاجرا في بيئة غريبة، وذلك طبعا مرتبط بطبيعة الاستعمار الفرنسي الذي سعى إلى مسح الهوية العربية الإسلامية للمغرب العربي وخاصة الجزائر مقابلة بالحماية الفرنسية والبريطانية على دول المشرق العربي والتي لم تكن بمثل تلك الحدة والخبث.»
ص:25

في هذا الإطار تظهر رواية (Le simon) " ربح السموم " ، أو " الشهيلي" بالفرنسية ، أول رواية تصدر بالفرنسية في المنطقة سنة 2006 وتدور أحداثها حول شخصية شاب من منطقة وادي سوف اسمه: " معراج" ، وهو كما تقدّمه الرواية وسيم ومنتقف وطموح يعمل معلّما للغة الفرنسية. وخلال فترة شبابه التي تهمّ بها الرواية يتعرّف على فتاة فرنسية تعمل ممرضة اسمها: "corinne" ، فيتعلّق بها حتى إنّه يسافر إلى فرنسا بحثا عنها ويلاقي في ذلك العنت والضيم ليعاد إلى الجزائر مطرودا. كما يتعلّق بفتاة من منطقتة اسمها: " قمره" ووالدها يعمل عون أمن بسيط مع الفرنسيين، وهو من يخلّصه من سجنه لدى الفرنسيين. ثم في الأخير تظهر فتاة أخرى اسمها: "الصافية" فيعجب بها هي كذلك. كما نجد في الرواية حضورا لأمه: " مطيرة". ص: 26

يضع الأستاذ عادل إشكالية في نهاية تحليله لهذه الرواية، ونحن نتفق معه في ذلك ، إشكالية الإبداع السردي المكتوب باللغة الفرنسية في وطن هويته عربية ، ولقارئ عربي حتى وإن أحسن اللغة الفرنسية فإنه لا يتمكن من إجادة التعامل معها تلقيا ومتعة. قلة قليلة من تستفيد من هذه النصوص.

أسئلة في صميم الموضوع يطرحها مؤلف الكتاب :

1. لمن تُكتب مثل هذه الرواية في ظلّ تراجع كبير للشريحة التي تقرأ بالفرنسية في الجزائر؟
2. ولمن توجّه في منطقة كوادي سوف ومحيطها حيث تكاد تنعدم تلك الشريحة الآن؟ إنّ بعضا من الروائيين الجزائريين أدرك ذلك فتخلّى عن الكتابة بالفرنسيّة . كبوجدره مثلا . لتراجع المتلقين بالفرنسيّة؛ فهذه اللغة صارت تمثّل جسرا مكسورا لا يمكن العبور من خلاله إلى الأجيال الجديدة من القراء، إنّها لم تعد منفى الكاتب فحسب . كما عبّر مالك حدّاد . بل منفى للفن الروائي الجزائريّ الراهن ذاته بالرغم ممّا يمكن أن تدرّه الرواية المكتوبة بالفرنسية من مردود ماديّ ومعنويّ لقدرتها على الوصول إلى مجال أفسح من القراء والنقاد والجوائز.

لكنّ ذلك لا يعني أنّ الأعمال الروائية الجزائرية المكتوبة بالعربية أقلّ اهتماما بالمسألة، أو أقلّ إحساسا بتمزّق الذات هذا؛ لكن الأعمال المكتوبة بالفرنسيّة تطرح مسألة الهويةّ وفي نفس الوقت هي مظهر من مظاهرها وواحدة من تجلّياتها. « ص: 37 اللون خبرة أساسية للكائن البشري ، يتميّز بها عن بقية الكائنات الأخرى التي يغلب عليها النظر بألوان محدودة ، وهذا ما ركّز عليه مؤلف الكتاب في معجم الألوان في الكتابات الاستعمارية من خلال نصّين ، أولهما " الطريق إلى قنادسة " للرحالة إيزابيل إبراهيم، وثانيهما " غراسة النخيل في وادي سُوف " لجاستون كوفي. النصّ الأول معجم الألوان به ثريٌّ جدا ، إذ لا تخلو أية فقرة من فقراته من مفردة أو أكثر ترمز إلى اللون، بينما النصّ الثاني تقل فيه المفردات الدالة على الألوان، ذلكم أن إيزابيل إبراهيم تنظر إلى البيئة الصحراوية على أنّها بيئة ثريّة بالألوان، وغنية بالحياة، وأنّها بيئة منتجة لمختلف المشاعر، والأدوات المزيّنة الملوّنة، فقنادسة عندها: « غارقة في بخار ورديّ، بقع سوداء للأشجار المتناثرة هناك، غابة النخيل ترتسم في خطّ أزرق، وفوق الرمال، مئذنة مهدّمة، تظهر في الشمس التي مازالت مائلة وكأَنَّها من البرنز الأشقر". بينما يرى كوفي البيئة التي يتحدّث عنها

مجرد طبيعة شبه صامته لا تكاد تنبض بالحياة، وأنها فقيرة إلى التسوّع فسوف بالنسبة إليه: "منطقة تغطّيها . بصفة كاملة . الرمال المتراكمة في شكل كتبان مختلفة الارتفاع.» ص : 48

معجم الألوان في هذه الكتابات الاستعمارية الغربية يكشف عن نظرتين مختلفتين للصحراء الجزائرية، نظرة تعتبرها فضاء حياة ثريّ، ونظرة أخرى تراها فضاء فقر، وبؤس:

« يكشف معجم الألوان إذن عن نظرتين مختلفتين للصحراء في الكتابات الاستعمارية الفرنسية؛ نظرة تعتبرها فضاء حياة ثريّ فتقدّم معجم ألوان ثريّ تتواتر الألفاظ الدالة على الألوان فيه بسخاء، ونظرة ثانية تراها فضاء حياة فقير وضحل فتعرض معجم ألوان مقتضب تتواتر ألفاظ الألوان فيه بشكل متباعد. كما يكشف عن موقف فاتح الألوان في النظر إلى الصحراء يعايشها ويرى فيها نبض حياة ووجود إنسانيين جديرين بالاحترام والانفتاح عليهما، وموقف آخر يرى الصحراء قائمة بوفرة ألفاظ القائمة التي يراكمها في نصّه مقابل ألفاظ الألوان الفاتحة، فهي مجال معتم لا يراعى فيه الجانب الإنسانيّ.

وفي الأخير يقوم استخدام ألفاظ الألوان الأساسية والألوان الفرعية بكشف نظرتين إلى الصحراء إحداهما تمثل الطبيعة والأخرى تمثل الثقافة.» ص: 56

الفصل الثاني :من بلاغة أدب الأطفال

هذا الفصل خصّصه المؤلف لأدب الأطفال الذي شغله منذ سنوات ولا يزال حينما أصدر كتاب " دراسات في أدب الأطفال " مشاركة مع الدكتور أحمد زغب سنة 2004، بهذا الفصل موضوعان مهمّان : خصائص النص الناجح في أدب الأطفال، والطفولة والوطن في الشعر الجزائري المعاصر.

لا شك أن أدب الأطفال من وظائفه أنه يعمل على توسيع مجال خبراتهم، ويكسبهم فصاحة في اللسان، وقدرة على التعبير، إضافة إلى أنه ينمّي فيهم الخيال الخصب الذي يمكنهم من الإبداع والابتكار، ويعتبر الشعر أحد فنون الأدب التي عرفتتها الأمم منذ القدم، واستخدمتها للترفيه والتربية، ويتميز عن باقي فنون الأدب بالنغم والإيقاع الذي يجذب الأطفال، لهذا اكتسب منزلة خاصة في أدب الأطفال، وأصبح الفن الأدبي الأقوى تأثيراً في نفوس الأطفال. ومن الناحية التربوية، فإن الشعر يوجه الأطفال نحو الممارسات السلوكية الحميدة لما يحتويه من مضامين مختلفة تحثهم على ذلك، كما

أنه يعد وسيلة من أهم وسائل التعلم خصوصاً في المراحل المبكرة من حياة الطفل؛ حيث إنه يُسهم في زيادة الحصيلة اللغوية للطفل ويدربه علي استخدام اللغة السليمة. ومن أجل ذلك فالإبداع فيه عصيّ، حتّى أن الكثير من الكُتّاب الكبار المشهورين إنّ من العرب، أو غيرهم أقرّوا بعجزهم عن الكتابة للأطفال سيّما الشعر منه.

إن الخصائص الفنية الضرورية لشعر الأطفال التي أوردها الدكتور عادل في كتابه هذا دقيقة، وتتماشى مع أشرنا إليه أعلاه من توفّر: نغم، وإيقاعٍ خفيفين متنوعين، صور شعرية حسّية، مسرحية القصيدة، توظيف الشخصيات المحبّبة للأطفال، اللغة المناسبة: « يمثّل الشعر بالنسبة للأطفال مجالاً للتسلية والترفيه في الجماعة، وأنيسا وقت الوحدة، كما أنّه أداة تعليمية فعالة إذا وجدت من يحسن استغلالها. ولشعر الأطفال خصائص فنيّة إذا توفّرت فيه ضمنت له أن يقدم نصّاً ناجحاً لا تنقصه إلا طريقة توصيل ملائمة عبر مربّ حاذق أو لحن جذاب ليُتداول على ألسنة الصغار. وهذه الخصائص هي:

- الموسيقى الخفيفة المتنوّعة. - الصورة الشعرية الحسيّة. - مسرحيّة القصيدة.

- توظيف الشخصيات المحبّبة للأطفال. - اللغة المناسبة. « ص: 63

بحث المؤلف عن هذا الخصائص تحليلاً وشرحاً في النصوص التي نظمها المرحوم الشيخ الطاهر تليلي لتلاميذه، والتي ضمّتها الجزء الثاني من ديوانه الدموع السوداء. الجزء الثاني هذا الذي أطلق عليه الأستاذ عادل " المدرسيات ". الشيخ تليلي كرجل تربية ومعلم، ومصالح نظم هذه الأشعار لتلاميذه كي تكون تربية لهم على كريم الأخلاق، وشريف الطباع، وتوجيهاً لهم إلى التدين بالدين الإسلاميّ الحنيف، والتشبّث بوطنهم العربي الشريف، وتنشيطا لهم على الأعمال المثمرة، وترويحاً على نفوسهم اللعوبة من عناء الدروس المتعبة، المجهودة. ص : 65

يمثل الوطن أحد الموضوعات الهامة في الشعر، وغالبا ما يرمز الشعراء إليه بالمرأة، كما العديد من الشعراء خلال الأزمات النفسية التي يمرّون بها، أو تمرّ بها مجتمعاتهم يعودون إلى مرحلة الطفولة البريئة، النقية. الدوافع التي تُحفّز الشاعر على إبداع شعر الطفولة هي متعددة منها أن يوجه الشاعر شعره إلى أحد أبنائه، أو إحدى بناته كما هو حال الشاعر كمال عجالي في قصيدته " عودة الفارس الغائب " في ديوانه " حدسٌ وإرهاصٌ " والتي كتبها لابنته أماني ؛ أو

قصيدة " وطن لأنيس " للشاعر مشري بن خليفة في ديوانه " سين " التي كتبها لابنه أنيس .

كما تظهر صورة الوطن في شعر الأطفال من خلال ديوان الشاعر بوزيد حرز الله " علمتني بلادي " إذ تنطلق صورة الوطن من عنوان الديوان الذي يحلّ فيه الوطن محلاً مقدساً ممثلاً في موقع المعلم الذي يقدم المعرفة فتعكس في وجدان الطفل صورة وطن، وطن طيّب، متسامح، متّسع للجميع. لكن ما هي الصورة الحقيقية للوطن التي نقدمها للأطفال ؟ الصورة المثالية التي نتخيلها، ونحلم بها، أم الصورة الواقعية القائمة ؟

« إنّ أدب الأطفال الذي يحرص على تقديم قيم متفائلة لا يمكن أن يستمرّ في تقديم صورة عن الوطن بعيدة عن الواقع؛ بل تكاد تكون مخالفة ومناقضة له. على الشعراء الذين يتوجّهون للأطفال ان يقدّموا الصورة الحقيقية ليتجسّد هدف كتابتهم المتمحور حول مقولة: " العناية بطفل اليوم عناية برجل الغد "

إذ لا يمكن أن نشكّل نفسية ووجدان رجال الغد بصورة مغايرة للواقع لأنهم يوم يكبرون سيجدون هوة بين الصورة التي حرص الأدب . وحتى مؤسسات التعليم من خلاله . على رسمها للوطن .

يجب أن يعرف الأطفال أنّ الوطن ليس كلّه أشخاصا طيبين
ومتعاونين بل فيه السيئون أيضا، وفيه الأشرار كما فيه الأخيار، وهناك
من يعمل ضد مصلحته العامة كما يوجد من يعمل للصالح العام.»
ص : 86

الفصل الثالث : من بلاغة الأدب الشعبي

الأدب الشعبي هو ذلك الأدب الذي يصدر عن الشعب،
فيعبر عن وجدانه، ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية؛ ويتصل هذا
الأدب بمجموعة من الأشياء الأصيلة والعريقة، كالموسيقى
ال فولكلورية، وأغاني المناسبات، والأزجال والأمثال والحكايات، وغيرها
من الفنون الشعبية الأصيلة التي تُعتبر بمثابة وثيقة تاريخية لا توجد في
الكتب، ولا في الوثائق. لاشكّ في أنّ الاهتمام بالتراث الشعبي وجهٌ
من وجوه الارتباط بالحدور، وسبيلٌ من سبل الكشف عن مسار الحياة
والأفكار في مجتمع ما. كما أنّه ضربٌ من ضروب الحفاظ على الذاكرة
الإنسانية في كلّ تجلياتها وأبعادها. الجزائر كبلد عريق بتاريخه، وبصراعه
المستمر مع الطبيعة، ومع الغزاة، واتساع مساحته، وتنوّع سكّانه،
وثراء تراثه الثقافي، سمح بتعدد ثقافته الشعبية، ومنها الأدب الشعبي
المحلّي لكل منطقة، ومن هذه المناطق التي تزخر بأدب شعبي متنوّع ،
ثريّ وراقٍ منطقة الوادي بالجنوب الشرقي الجزائري. هذه المنطقة ذات

الطبيعة الصحراوية القاسية والتي تغطيها الرمال، ويتصارع فيها الإنسان منذ قرون مع المناخ الصحراوي القاسي، ورغم ذلك استوطنها، وطوّعها لأن تكون منطقة معطاء بخيراتها المتنوعة من تربية المواشي، وإنتاج التمور، والبقوليات المتنوعة. إن منطقة كهذه بثرائها الجغرافي والتاريخي، والسكاني أنتجت تراثاً ثقافياً عبّر وعبّر عن هويتها وكيونتها في إطار هويّة الأمة الجزائرية العريقة، من ذلك أن سكّانها قاوموا قساوة الطبيعة وجفافها الدائم برواء الشعر، والأزجال، والغناء الشعبي، وجابهوا وحشة الصحراء بأنس السرد من حكايا، وخرافات، وأمثال، وكذلك سرّد يومياتهم. إن هذا التراث في الثقافة الشعبية لمنطقة الوادي أغرى الباحثين أخيراً إلى الولوج في هذا الميدان الذي لا يزال بكراً، بالرغم من بعض الجهود القليلة ؛ فإن هناك صورة أخرى قد تبعث على الأمل في الحفاظ على هذا الجانب من الذاكرة، وتتمثل نقاطه في :

- ازدياد اهتمام الباحثين في المنطقة بالأدب الشعبي خاصّة بوجود معهدَي الأدب والتاريخ في المركز الجامعي بالوادي، فهناك كثير من الطلبة يتحمّسون للبحث في هذا المجال وهم يمكن أن يجمعوا مدونات هامة من محيطهم الأسريّ خاصة أنهم من كلّ أنحاء المنطقة. وكذلك

التحاق بعض أبناء المنطقة بالدراسات العليا في الأدب الشعبي في جامعات مختلفة كجامعة باتنة وغيرها.

- دور دار الثقافة محمد الأمين العمودي في تبني الإصدارات التي تجمع وتوثق وتدرس الأدب الشعبي بالمنطقة.

- دور إذاعة سوف المحلية كمركز لتجميع تسجيلات سمعية كثيرة، وكذلك دورها كحلقة بحث بين الشعراء والباحثين.

- دور بعض الجمعيات الثقافية بالولاية التي تعقد ملتقيات على مستوى هام من التخصص، كرابطة الفكر والإبداع التي نظمت بالتنسيق مع مخبر أطلس الثقافة الشعبية ندوة حول الأدب الشعبي وقضايا الوطن ثم أصدرتها في كتاب.

- توفر التقنيات الرقمية الحديثة لتوثيق وحفظ التسجيلات السمعية. إن ميدان الأدب الشفاهي في وادي سوف لا يزال يتطلب جهودا كثيرة، وهو مفتوح لكل الدارسين لتقديم أعمال علمية منهجية تؤلف بين جمع المادة الخام، وتصنيفها وتبويبها، وبين الدراسة الأكاديمية التي تستنطق النصوص الشفاهية مستنبطة الجوانب الفنية والاجتماعية والأنثروبولوجيا.

فلقد اجتهد عددٌ من أبناء المنطقة، وغيرهم في جمع التراث الأدبي الشفاهي وتدوينه، منه ما طُبِعَ ، ومنه ما لا يزال مخطوطاً، وهي جهود لا تُنكرُ وجديرة بالإشادة والتنويه؛ لكنّ صار لزاماً الآن أن تُحَقِّقَ قفزةً في الجمع والدراسة من حيث الكمّ، ومن حيث الكيف أيضاً. من حيث الكمّ بجمع أكبر قدر ممكن من الأدب الشفاهي وتدوينه كتابة أو تسجيلاً صوتياً أو حتى مرئياً، وأمّا من حيث الكيف فبعدم التوقّف عند الجمع بل الانطلاق في فضاء الدراسة والتحليل خدمة للأدب وللمجتمع معا.» ص: 108

هي جهود ذات طابع أكاديمي بغرض إعداد درجات جامعية ماجستير، دكتوراه، وهو ممّا يكسوها الصبغة المنهجية، ويوقّر للنص السردى والشعري الشفاهي في وادي سوف فرصاً للدراسة، واستخلاص القيم الاجتماعية، والثقافية، والقيمية الأخلاقية، والسّمات الفنية. يُنهي الأستاذ عادل المحلّو كتابه بموضوع الصراع بين الأجيال في الشعر الشعبي بمنطقة سوف، ويختار الشاعر علي بن حامد الربيعي نموذجاً من خلال قصيدته " البير " التي يشكو فيها الشاعر من تهميشه من لدن قبيلته لأنه يحمل رؤى جديدة كونه ابن عصره، أفادته سفرياته المتعددة نحو منطقة الشمال، واحتكاكه بسكانها، وطبيعتها

الحية، ووفرة وسائل المعيشة بها، مما ارتآه شيوخ القبيلة قمرًا عليهم،
وشعورًا بالاستغناء عنهم، وأنّ دورهم في مجتمع القبيلة انتهى؛ بل في
الحياة بأسرها. هو في الحقيقة صدامٌ بين الأجيال في كل المجتمعات،
وهو أشدّ وقَعًا في المجتمعات العربية للرؤى المختلفة بين الأجيال
القديمة، والمخضّرة، والأجيال الجديدة. شخصيا لا أعتبره صراعًا، إنّما
أعتبره تدافع المجادلة التي كل جيل منها يواصل المسيرة بالتقييم،
والتقويم، والإثراء المتواصل.

وبعد

كتاب فصول من بلاغة الرمل للدكتور عادل المحلو من خلال
عنوانه يشي بأن مضمونه يتعرّض إلى أعمال إبداعية في منطقة وادي
سوفّ تحديدا. مواضيع الكتاب التي تنوعت، ومضامينها الثريّة التي
كان بعضها عبارة عن مداخلات قدّمتها الأستاذ عادل في ملتقيات
فكرية، ممّا ألبسها الجانب الأكاديمي من حيث دقّة الأفكار،
ومصدقية الرؤى، وسلامة اللغة وسلاستها، وتفادي الاستطراد الممل،
ورشاقة العبارة. كتاب قيمٌ، لا ريب أن القارئ العادي سيستفيد منه،
كما الباحث عن خصائص الإبداع الأدبي بمنطقة وادي سوف سيلفئ
فيه الكثير ممّا يبحث عنه..

مذكرات الطريق..

عنوان الكتاب: مذكرات الطريق..رحلة من الواحات الجزائرية
والتونسية.

تأليف : الرحالة الفرنسي هنري دي فايرييه

ترجمة : ميهي عبد القادر . عدد الصفحات: 206

إصدار : دار الثقافة بالوادي

بقلم : بشير خلف

الصحراء ذلك الفضاء الشاسع السحريّ الأسطوريّ الكامن في
المخيال الجمعي للإنسانية عامة، وفي الذاكرة العربية بشكل خاص،
حيث تبرز الصحراء في الوعي، والمُخيّلة مَجْمَعًا للنقائض، منسجمة
مع طبيعتها المتقلّبة ، فهي لا تسكن حينًا حتّى تثور، ولا ترضى لحظة
حتّى تغضب، تفرح فيتحوّل الكون إلى مسرح شعريّ رائع، وتغضب ،
فيكون في غضبها الهلاك والشقاء.

ولوح الصحراء فتحٌ لإمكانية الحكيم.. أن تعيش وترى،
وتحكي عمّا رأيت، والرؤية هنا لا تأبه كثيراً بالمنظور الحسي، بل
تتعداه. فالصحراء هي واحدة من مُحَرِّضات روح المغامرة الإنسانية،
وهي التي توسّع أفق التصور المحفّز على الكتابة والبوح، والإبداع..
وأولئك الذين ولجوا الصحراء، أياً كانت دوافعهم، قد غادروها وهم
مُثقلون بوفرة من الحكايات. غير أن الصحراء في الوقت نفسه مرتعٌ
فدٌّ للملاحظة العلمية والتاريخية، مثلما هي فضاء لا يُضاهى لمسارات
من السرد لا تنتهي، وهي التي ألهمت شعراء، ورحّالة، ومغامرين،
ومستكشفين، وجواسيس، ومغرمين بأحاييل الجغرافيا، وعتمات
التاريخ، ومتصوفة، ومهووسين بالتحرش بحدود الموت، وغيرهم
ليدخلوها، ويخرجوا منها وهم على غير ما كانوا عليه. الكثير من
الرحّالة الغربيين من قديم ولا يزالون فتنوا بالصحراء، وولّوها بها وحتى
الذين كانت مهامهم اكتشافاً، وجوسسة للاستعمار الغربي لم يسلموا
من هذا الوله، والافتتان بالصحراء، وخاصة الصحراء الكبرى
الإفريقية.

الرحّالة هنري دي فايرييه

من هؤلاء الرحّالة وعالم الجغرافيا الفرنسي هنري دي فايرييه
الذي اشتهر باستكشافاته للصحراء، وأقام بها العديد من الشهور في

الصحراء الجزائرية، والتونسية، ووصل حتى مدينة غدامس حيث الحدود الليبية. هذا الكاتب الرحالة يُعتبر من أبرز المغامرين والمستكشفين الغربيين الذين جابوا الصحراء، ودوّنوا ملاحظات مهمّة صدرت في كُتُب ، تُعدّ الآن مراجع مهمّة للباحثين في شتّى المجالات؛ فقد قدّم معلومات، ومشاهدات غزيرة، ووثائق قيّمة، وهامّة ، ويوميّات تحكي بأدقّ التفاصيل مشاهداته وملاحظاته لمختلف المناطق التي زارها. أُلّف هذا الرحالة العديد من الكتب حول استكشافاته في رحلاته، منها مذكّرات رحلة في إقليم الجزائر، استكشاف الصحراء.. توارق الشمال، إخوانية سيدي محمد بن علي السنوسي المسلمة، ومجالها الجغرافي سنة 1300 هجري، والكتاب الذي بين أيدينا : الصحراء الجزائرية والتونسية. مذكّرات الطريق.

الكتاب

صدر في بداية هذه السنة عن دار الثقافة محمد الأمين العمودي بالوادي كتاب: " مذكّرات الطريق ..رحلة في الواحات الجزائرية التونسية 1860-1861 " للرحالة الفرنسي هنري دي فايرييه ..ترجمة الكاتب والمترجم الجزائري ميهي عبد القادر، أصيل ربوع سُوف.

الكتاب من الحجم المتوسط، يتضمّن : الإهداء، شكر، مقدمة ،تصدير، من بسكرة إلى وادي ريغ، ووادي سُوف، ورقلة وتقرت، من تقرت إلى الجريد مروراً بسُوف، في الجريد التونسي، نفزاوة وقابس، العودة إلى الجريد عبر قفصة، من توزر إلى بسكرة، في وادي ريغ، في سُوف، مذكرات عن التجارة في الوادي، السفر إلى غدامس .. تضمّنها مجتمعة 206 صفحات. الغلاف من إبداع الفنان التشكيلي كمال خزّان .. غلاف يعبر عن البيئة الصحراوية عمراً وطبيعة. قدّم للكتاب الأستاذ الباحث الدكتور العيد جلولي، الأستاذ بجامعة قاصدي مرباح بورقلة، حيث ممّا جاء في المقدمة : « إن هذا الكتاب " مذكرات الطريق: رحلة في الواحات الجزائرية والتونسية سنة 1860م لهنري دوفيرييه الذي نسعد بتقديمه يمثل حلقة من حلقات كثيرة بدأها الكاتب والمترجم عبد القادر ميهي منذ فترة طويلة قدم خلالها للمكتبة العربية مجموعة من الكتب المترجمة، بعضها رحلات، وبعضها تقارير الضباط الفرنسيين، وبعضها الآخر مذكرات لهؤلاء الرحّالة، أو الضباط العسكريين سجّلوا خلالها انطباعاتهم أثناء قيامهم بهذه الرحلات، أو أثناء تدوين هذه التقارير.»

ومما جاء في التصدير للأستاذ محمد حامدي مدير دار الثقافة بالوادي: «...وجب علينا أن ننوّه هنا بالجهودات المبذولة من قبل الأستاذ ميهي في سعيه من أجل المحافظة على إرثنا الحضاري، والثقافي من خلال ترجمته لمجموعة من الكتب جلّها تتحدّث عن تاريخ الوادي، كتبها بعض المستكشفين الغربيين الذين عاشوا لفترة من الزمن في هذه الأرض، فمنهم من أحبّها، وعشقها، وكتب عنها بكل جوارحه عن كل شيء عاشه، أو شاهده؛ فكانت كتاباتهم عبارة عن صفحة من صفحات تاريخ هذه الجهة، والأستاذ عبد القادر ميهي يكون بهذا قد وضع لبنة متينة من أجل ترجمة مختلف الأعمال التي كُتبت عن المنطقة، والمناطق المجاورة.. الصحراء الجزائرية ألهمت منذ القدم العديد من المستشرقين، والمفكرين الغربيين، فكتبوا عنها مجموعة من الكتب تُعتبر في ظلّ شحّ الكتابات مرجعاً يمكن من خلاله معرفة جوانب عديدة من الحياة التي كان يعيشها سكان تلك المناطق.

نصوص الكتاب المترجمة

إن ترجمة النصوص في هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية من قبل الأستاذ المبدع ميهي عبد القادر جعلتني في كثير من الأحيان أتصوّر نفسي لا أقرأ للكاتب الرحّالة، وإنما أقرأ نصوصا للمترجم، وكأنّ الإثنان يتماهيان.. إن

الترجمة لدى الأستاذ ميهي إبداعٌ وفنٌّ، ومعايشة للنصّ المترجم، وتغلغل في مكوّناته المعرفية، والتاريخية، وتوظيف راقٍ للغة العربية من أجل إيصال أفكار كاتب النصّ الأوّل؛ فقد يقرب لك الفكرة فيجعلك وكأنك عشتها، أو هي جزءٌ منك في مرحلة من مسيرة حياتك.

ففي نصّ بسكرة 15 جانفي (يوميات).لما يتكلم هنري دي فايبريه على الجولة التي قام بها رفقة السيد كولمبو إلى حمّام الصالحين، محدّدا موقعه المكاني بدقّة، ويصف الماء، والرائحة المنبعثة منه، وكذا غرف المستحمّين، ودرجة حرارة الماء، والسبب الذي دفعه إلى هذه الجولة مع رفيقه؛ نلاحظ أن المترجم ميهي عبد القادر بمهارته في الترجمة، وإبداعه فيها يجعل المؤلّف الأصلي للنصّ يتوارى، والمتلقّي يجد الكاتب ميهي وكأنه صاحب النصّ وحده :

«... غطس السيد كولمبو في الحمّام؛ أمّا أنا فاكنتيت بوضع رجلي فقط ، والتي أصبحت تؤلّني بعد وقت قصير. كان سبب هذه الجولة رغبتني في الحصول على عيّات من الأسماك التي تعيش في الساقية الجارية من الحمام، ويحتفظ ماؤها لوقت طويل نسيبا بجمارته، وأيضا بالأملاح المشبع بها. هذه الأسماك التي تمكّنتُ من الحصول على نماذج

منها تشبه كثيرا تلك التي في مياه وادي ريغ الارتوازية، حيث تعيش في مياه تصل حرارتها الـ 30 درجة مئوية.»

هذا الكتاب عبارة عن يوميات سجّل فيها هنري دي فارييه كل ما رآه، وما صادفه في طريقه سنة 1860م ، من بسكرة إلى وادي ريغ، ووادي سُوف، ثم السفر إلى غدامس بدءا من يوم 15 جانفي ببسكرة إلى يوم 10 آوت 1860 م .علما أنّ اليوميات كما هو معلوم، تُعد وثيقة، أو وثائق تاريخية مهمة، يمكن الاستفادة منها من قبل الكثير من فروع العلم، كعلم النفس، وعلم النفس الاجتماعي، والعلم العسكري، وكذلك الأمني، مثلما يستفيد من اليوميات المؤرخ، الأستاذ الجامعي، الطالب، المثقف، وغيرهم. إضافة إلى الفائدة الأدبية الكبيرة التي يمكن أخذها من اليوميات، وبالطبع هذا يتوقف على مستوى صاحب كاتب اليوميات. بالكتاب الذي بين أيدينا توجد وثيقة تاريخية هامة تبدأ من الصفحة 157 عنونها:

" مذكرات عن التجارة في الوادي " في ذاك التاريخ، ومحاورها، وأسواقها، وحتى أسعار المواد الاستهلاكية الأساسية، إذ يُقرّ هنري بأن التجارة في منطقة سُوف لا علاقة لها بالشمال الجزائري الذي أطلق عليه هنري بـ " ممتلكاتنا في الشمال " :

« تسلك تجارة الوادي أربع اتجاهات أساسية، ومن الغريب أن لا واحدة منهن تتجه نحو (ممتلكاتنا في الشمال) ، بسكرة، أو ربّما تبسة. " تقرّت " لديها في الحقيقة علاقات مع صُوف (الوادي)، ولكن التجارة التي تُعتبر الأساس فاترة جدا، وهي تخصّ في غالبها بلدات صُوف الثلاث " قمار " و " كوينين " و " الزقم " . وقنوات التجارة الرئيسة الأربعة هي: تونس، الجريد، قابس، تتمّ عبر هذه الأخيرة المبادلات مع " غات " و " السودان " إضافة إلى ورقلة. أمّا التجارة مع " الجريد " فتعتمد حصراً تقريبا على الأقمشة الرفيعة من صُوف، وحرير هذا البلد.

التداول في الوادي للسلع القادمة من تونس، تدخل في دائرة المنتجات المصنّعة، وفي أغلبها إنجليزية، أو مالطية. على سبيل المثال الأسعار الجارية حينذاك كالتالي:

. قطعة قماش قطني من مالطة : 22.5 م إلى 23.5 م طولاً ثمنها 9 فرنك.

. منديل قطن ملون . إنكليزي . الدزينة 6 فرنك.

. ورق أبيض للدراسة 500 ورقة 5 فرنك.

. برنس غير مخاط من الجريد من 20 فرنك إلى 25 فرنك.

حايك من الصوف من 22.5 فرنك إلى 30 فرنك.

أما أسعار نقل وحمولة الجمل بالفرنك :

. من الوادي إلى تونس 80 فرنك صيفاً، 40 فرنك شتاء.

. من الوادي إلى ورقلة 20 شتاء، إلى ميزاب 25 شتاء، إلى تبسة 22.5 شتاء.

أهمية الكتاب

يُعدّ هذا الكتاب من الوثائق التاريخية المهمة، ووثيقة أساسية في معرفة تاريخ الصحراء الكبرى بصفة عامة، وتاريخ الصحراء الجزائرية الشرقية، ومنطقة ربوع سُوف خاصة بكونها منذ القديم منطقة ذات نشاط تجاري، ومحور للسفر، والتبادل التجاري مع الجنوب الجزائري، وتونس، وغدامس.

إن هذا الكتاب يُعتبر لبنة جديدة تُضاف إلى صرح الثقافة العربية، والمكتبة الجزائرية؛ هو عملٌ تاريخي ثقافي يُهدى للجيل الحاضر والمستقبلي، منه يشعر بأهمية التاريخ الوطني، وتضمن جهود الآباء والأجداد حتى يحدو حدوهم في عمارة المنطقة وخدمتها، وتنميتها، وكذا الحفاظ عليها ضمن الحفاظ على الوطن، وخدمته بالأعمال الخالدة.

قاموس الشهيد

عنوان الكتاب: قاموس الشهيد لمنطقة سوف ..ولاية الوادي

تأليف : سعد البشير العمامرة عدد الصفحات : 1070

إصدار: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع .الجزائر

بقلم : بشير خلف

صدر في سنة 2014 للكاتب، والباحث في التاريخ الوطني الثوري المعاصر الأستاذ سعد بن البشير العمامرة كتابٌ متميّز في شكله، وإخراجه، وتصميم غلافه، ومضمونه أطلق عليه " قاموس الشهيد لمنطقة سُوف ولاية الوادي" ..الكتاب من طباعة دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع بالجزائر العاصمة.. يقع في 1070 صفحة.

توشّحت الصفحات الأولى من الكتاب ببيان أول نوفمبر 1954م ، النشيد الوطني الجزائري، أبيات من إيالة الوادي للشاعر السوفي السعيد المشردي، بعنوان " هم الشهداء "، الإهداء، ثم التقديم للدكتور حسان الجيلاني الذي قسّمه إلى موضوعين أساسيين : الأول

يعرّف بالكاتب الباحث سعد لعمامرة، والثاني يتناول موضوع الكتاب.. ومّا قاله عنه أنه كان إضافة إلى عمله في التدريس الذي انضم إليه في سنة 1968 م إلى تاريخ تقاعده في عام 1990م أنه كان يناضل سياسياً، ويؤسس الجمعيات المدنية، ومنها الجمعية الثقافية محمد الأمين العمودي التي كان من أبرز مؤسسيها، حيث انتخب رئيساً لها سنة 1990م، وحوّلها إلى جمعية ثقافية وطنية سنة 1994م، وهي الجمعية التي ومنذ ذلك التاريخ تنضم ندواتها الفكرية السنوية، كما كرّمت العديد من الوجوه التاريخية الثورية، والقامات الفكرية، وتواصل رسالتها الفكرية إلى يوم الناس هذا، كما انخرط مع مناضلي حزب جبهة التحرير الوطني حتى أصبح عضواً في محافظة الوادي، وفي تاريخ مبكّر اهتم بالبحث، والتنقيب، والتدوين لكتابة تاريخ وثقافة المجتمع السوفي؛ كما أنه الوحيد حتى يومنا هذا من تصدّى للبحث والتنقيب والتدوين لتاريخ الثورة التحريرية المباركة بالمنطقة.

سعد العمامرة عرّف أيضاً بشهداء المنطقة، وكتب كتاباً قيماً في ذلك، وأسهم في التعريف بمثقفي المنطقة وأعلامها، وألّف كتاباً في ذلك، كما أنه ألّف كتاباً عن معارك حرب التحرير بوادي سّوف ، طبع سنة 1988م، وكتاباً عن الرئيس الراحل هواري بومدين ، وكتاب

آخر حول شهداء الجزائر بعنوان: شهداء من بلادي صدر سنة 2006م ، وكتابا آخر حول الإنتاج الفكري السوفي من 1886م إلى 2008م تعرّض فيه إلى التعريف بـ 250 كاتباً، وباحثاً من وادي سُوف في مختلف المجالات الفكرية، صدر سنة 2010م ...سعد العمامرة لم يكتف بنضاله السياسي الذي أهله كي يكون عضواً في البرلمان الجزائري سنة 1983م لمدة خمس سنوات، بل هو من النخبة المثقفة الفاعلة في ربوع سُوف.

في الجزء الثاني من التقديم نوّه الدكتور حسّان الجيلاني بهذا الجهد الفكري المضمّن، وثمّن هذا القاموس ليس بسبب ذكره للكثير من المعلومات، والإحصائيات، والمعارف فحسب، وإنما لأنه جمع كل تلك المعارف المشتّتة والمبعثرة في ثنايا الوثائق، والمراجع، ومن ذاكرة المجاهدين الأحياء، ودوّنها، وأخرجها في هذا العمل الأكاديمي الجميل كي تكون مصدراً هاماً للأجيال الحاضرة، والقادمة. في مقدمة الكتاب يؤكد الكاتب والباحث سعد العمامرة على أنه باعتباره من عائلة ثورية، وابن شهيد ، ومرافقته للأسرة في هروبا من الاستعمار الفرنسي سنة 1957م إلى تونس بدأ اهتمامه بتدوين التاريخ الوطني إذ كتب

بعد هذه السنة كَرَّاسًا كاملاً بخطّ يده يتعلق بتاريخ الجزائر من بداية الاستعمار الفرنسي إلى غاية الاستقلال سنة 1962م.

ثم كان الكتاب الأول في سنة 1988م يتعلق بالمعارك التي جرت بالمنطقة أثناء حرب التحرير، فالكتاب الثاني في سنة 1991م يتعلق بالتعريف بعدد من شهداء منطقة وادي سُوف ، يليه الكتاب الثالث الذي صدر في سنة 2006م يُعرّف بعدد كبير من شهداء الجزائر في عدة ولايات، يلي ذلك هذا القاموس .

هذا القاموس

يضمّ هذا القاموس الثمين ثلاثة أجزاء :

الجزء الأوّل ، يتضمن :

- 1) وادي سوف: جغرافيا، إداريا، موقعا وحدودا، مناخًا، نباتا، مياهًا، حيوانات، وادي سوف عبر التاريخ. (2) الاحتلال الفرنسي للمنطقة. (3) الحركة الإصلاحية بسوف. (4) الحركة الوطنية بسوف. (5) الثورة التحريرية بمنطقة الحدود والصحراء في عهد المجاهد الشهيد حم لخضر، في عهد المجاهد الشهيد ابن عمر الجيلاني، في عهد المجاهد الشهيد قمودي الطالب العربي.

6) التنظيم المدني بسوف ومجزرة رمضان 1957م . 7) قيادة الثورة بتونس في عهد الشهيد سعيد عبد الحي . 8) منطقة الحدود ووادي سوف بعد استشهاد الطالب العربي.

الجزء الثاني، يتضمن :

1) . معارك وحوادث حرب التحرير بمنطقة وادي سوف، والحدود والصحراء : المعارك والحوادث القريبة من العمران، معارك وحوادث الحدود الجزائرية التونسية الجنوبية، حوادث الحدود الجزائرية الليبية .
2) معارك الحدود الشرقية داخل العمران.

الجزء الثالث ، يتضمن :

يشتمل هذا الجزء على الحصّة الكبيرة من الكتاب، ويتعلق بقاموس الشهيد ؛ فهذا القاموس الذي يحمل في مجمله عنوان الكتاب يحتوي على حيوات وسيرة 583 شهيدا من شهداء وادي سوف، حيث الباحث بذل جهودا مضنية في ضبط وتدوين سيرهم وفق الإمكانيات التي تحصّل عليها من المصالح الرسمية كالبلديات، وقسمات المجاهدين بالبلديات، أو لدى العائلات المعنية، والمجاهدين الأحياء رفقاء السلاح، الوثائق، المراجع .. فالقارئ للكتاب سيجد نبذة تاريخية عن كل شهيد من شهداء وادي سوف إن كان مدنيا، أو عسكريا ولو

كان ميلاده خارجها.ومما يساعد القارئ والباحث أن هؤلاء الشهداء مسجلون وفق الحروف الأبجدية العربية، إذ يتيسر البحث عن أي شهيد في هذا الجزء الثالث من الكتاب الذي يتجاوز عدد صفحاته 650 صفحة من صفحات الكتاب الكلية 1070 صفحة.. كما أن تسجيلهم داخل الحرف الواحد خضع للتسلسل الزمني لتاريخ استشهادهم، وكذا تثبت كل شهداء أيّ بلدية على حدة في جدول شامل يتضمن اسم ولقب الشهيد، تاريخ ومكان الازدياد، تاريخ الالتحاق بالثورة، صفة العضوية (جيش التحرير، المنظمة المدنية)، تاريخ الاستشهاد. في آخر الكتاب يجد القارئ مجموعة من الملحقات منها مقتطفات من قانون المجاهد والشهيد الصادر سنة 1991م والذي في مادته الرابعة تعريف للمجاهد، الشهيد، أعضاء جيش التحرير، أعضاء المنظمة المدنية، الفدائي، المسبّل، المعتقل أثناء الثورة، السجين. كما يجد القارئ في الملحق الموالي تعريفا للمجاهد، المناضل، الفدائي ، عضو اتصال، المسبّل، الحركي، اشتباك.

إن هذا العمل الفكري الثقافي التاريخي ليس من السهل إنجازه من طرف شخص واحد..إنما الروح الوطنية المتأصلة، والغيرة على تاريخ المنطقة، وذاكرتها الثورية، وهي جزء من الجزائر الحبيبة ألهمت

الباحث والكاتب ابن الشهيد سعد بن البشير لعمامة كي ينجز هذا
العمل الذي يعجز عن إنجازة الكثيرون.. إنه لعمري عملٌ فكري لا
ريب أن كلَّ من يقرأه سيستفيد منه أكبر استفادة.

المكوّن السلفي في ...

عنوان الكتاب: المكوّن السلفي في عقيدة الشيخ راشد الغنوشي

تأليف: الأستاذ الضاوي محمد الصالح. عدد الصفحات: 71

إصدار: دار عليسة للنشر والتوزيع . تونس

بقلم: بشير خلف

صدر هذه الأيام من بدايات سنة 2016 للصحفي والكاتب المتفرغ للكتابة في التخصصات الإسلامية، والمسير حاليا لفرع شركة هونداي بالوادي الضاوي محمد الصالح كتاب بعنوان :

" المكوّن السلفي في عقيدة الشيخ راشد الغنوشي " الكتاب من المقاس المتوسط، يقع في 71 صفحة . صدر عن دار عليسة للنشر والتوزيع بتونس .. الغلاف معبّر عن مضمون الكتاب، إذ يحتلّ العنوان الثلث الأعلى من الغلاف، والثلاثان الباقيان تتصدرهما صورة الشيخ الغنوشي التي تختفي وراءها عدة صور يبدو أن المصمّم قصد من ورائها مراحل

التطوّر الفكري لدى الشيخ لتستقرّ عند صورة علم داعش ذات اللون الأسود كسندٍ تنكئ عليها صورة الشيخ على الغلاف.

الكتاب

المؤلف الضاوي محمد الصالح بحكم خبرته الطويلة في التأليف والكتابة، ومعرفته الواسعة بالواقع التونسي، قسّم كتابه هذا بعد الإهداء، والمقدمة إلى مراحل ستّة، ثم خاتمة، تتبّع فيها المسار الفكري للشيخ الغنوشي. بدءاً أهدى كتابه للإخوة والأخوات الذين، واللواتي ترافق وإياهم بحثاً عن الحقيقة أينما كانت، واجتمع وإياهم حول فكرة ومشروع، ليفترق الجميع عن بعضهم حول فكرة ومشروع، فإلى كل الذين تحوّلوا.. تغيّروا.. تطوّروا.. تحرّكوا.. وقفوا.. تراجعوا.. ثبتوا يهدي المؤلف كتابه.

في المقدمة يطرح الكاتب خمس إشكالات، وبطبيعة الحال سيجيب عنها في متن الكتاب، أولى هذه الإشكالات: أنه ليس من العادة التنقيب في ضمائر الناس، والتساؤل عن عقيدتهم؛ إلا إذا كان الموضوع مختصاً بشخصية عامة، وكانت عقيدتها تمسّ فكرها، وسلوكها، ونضالها كما هو الحال في الشيخ راشد الغنوشي. الإشكالية الثانية، إننا نؤمن ونعتقد(الكلام للمؤلف) أنّ روافد الشيخ العقديّة

متنوعة، ومكوّنات عقيدته متعدّدة، لذلك في الكتاب تمّ التركيز على المكون السلفي. أمّا الإشكالية الثالثة فما يتضمّنه متن الكتاب يطرح الموضوع من زاوية علمية بحثة بعيدا عن التشنّجات الانفعالية، والخلفيات الذهنية، فالاحتكام إلى نصوص الشيخ، والاستشهاد بها هي الفيصل. وليس معنى أن ما أتينا به من استشهادات هو الادعاء بالموضوع من جميع جوانبه. هذا ما جاء في الإشكالية الرابعة. الكاتب نبّه القارئ الكريم في الإشكالية الخامسة على أنه تحاشى عمداً الوقوف عند مصطلح " السلفيّة " بسبب تطوّر هذا المصطلح وتغيّره من مرحلة إلى أخرى؛ إضافة إلى أنه مع الشيخ الغنوشي يحتوي على خصوصيات تُخرجه عن دائرة التعريف العام.

المراحل

في المرحلة الأولى ركّز الكاتب على مولد الغنوشي وتربيته وتنشئته التقليدية حيث كان أبوه إماماً، تربية مشبعة ببعض القيم الإسلامية: « ولد الشيخ راشد الغنوشي في مدينة الحامة بالجنوب التونسي سنة 1941، وتلقى تعليماً وتربية تقليديين، حيث كان أبوه إماماً لأهل القرية، علّمه القرآن، وزرع فيه بعض القيم العربية والإسلامية التي كانت واقعا معيشا في تلك الفترة وفي ذلك المكان. ويمكننا التأكيد على أن الشيخ راشد تلقى عقيدة مالكية أشعرية

تقليدية، ممتزجة بروحانية التصوف، التي كانت تمتد إلى كل القلوب، بصفة عفوية وعاطفية، حيث المدائح والأذكار النبوية، وإحياء الموالد، وبعض الاحتفالات الدينية، وما يتبعها من سلوكيات وعادات وتقاليد، تجذرت في المجتمع التونسي عبر قرون.» ص: 11

إلا أنه مع تقدمه في الدراسة الثانوية، كان ميله إلى الفلسفة يشتد، وحبها لها يقوى، وتأثره بنظرياتها يظهر، ممّا أدخل إلى عقله الشك والحيرة والسؤال، فكان يجادل بأدوات الفلسفة، شيوخ الزيتونة، الذين لم ينالوا حظوة لديه، بل كان أسلوبهم التدريسي ممقوتا عنده، ولم يكن لهم الاحترام مطلقا. ويؤكد الكاتب على أن الغنوشي اتخذ الفلسفة كمادة نقدية رافقته في كامل حياته الفكرية، وقد أثرت في عقيدته، وحملته على مراجعة العقيدة السلفية التي اعتنقها لاحقاً في سورية. ولما سافر الشيخ إلى المشرق في أوائل الستينات كان لا يحمل من العقيدة الإسلامية إلا ما ترسّخ في أعماق شخصيته من تربية تقليدية باعتراف الشيخ نفسه الذي يقول:

"... وأدركت في الوقت نفسه، أن الإسلام الذي نشأت عليه، ليس هو الإسلام الصحيح، وإنما كان إسلاما تقليديا بدائيا مخلوطا بمواريث عصر الانحطاط، لا يمثل رؤية عامة للكون والحياة، ولا نظاما شاملا

للحياة، وإنما مجرد تدين تقليدي شخصي و خلاص فردي بعد الموت،
ولذلك اعتبرت نفسي أي لم أكن مسلما حقا، وكان علي أن أتخذ قرارا
بدخول الإسلام، بعد أن تيقنت أن ما كنت عليه ليس هو الإسلام،
وإنما تقاليد وعادات وشعائر لا تحمل أي منهاج حضاري أو نظاما
للحياة". ص : 14

في بداياته الفكرية، كان الشاب راشد الغنوشي، العائد من
فرنسا سنة 1969، عاقدا العزم على الاستقرار بالخارج، نظرا لفقدانه
الأمل في وعي وطني كفيل بإحياء مسيرة الإصلاح التربوية الإسلامية.
وكان قد أقام في مصر وسوريا، ودرس هناك، والتقى بكل التشكيلات
السياسية العاملة في الساحة الشامية، وتعرف على توجهاتها وعلى
أهدافها، واتخذ منها موقفا حازما. "زار الشيخ راشد الغنوشي في تلك
الفترة من 1964 مصر، ثم سوريا، وخرج في رحلة دامت بضعة شهور
من سنة 1965 إلى تركيا وبلغاريا ويوغسلافيا والنمسا وألمانيا وفرنسا
وبلجيكا وهولندا، ثم عاد إلى سوريا، ليستقر بها إلى حدود 1968،
ليرتحل إلى فرنسا لاستكمال الدراسات العليا في الفلسفة..

راشد الغنوشي انتمى فكريا إلى القومية التي سادت المشرق
العربي في الستينات من القرن العشرين، ثم انسلخ عنها، ووصفها

بالعلمانية، ثم تأثر بالسلفية في حلقات الشيخ ناصر الدين الألباني، وفيها تعرّف على ابن تيمية، وابن القيم، وأنّ هذا العنصر السلفي ظل مطبوعاً في شخصيته، وعنصرًا ثابتًا في عقيدته. وفي هذه المرحلة تعرّف الشيخ الغنوشي على مختلف التنظيمات الإسلامية بسوريا، وكان الإخوان أقربهم إلى قلبه، غير أنه لم ينضمّ إليهم. ص: 20 .

يمكن القول إن المكون السلفي الأول في عقيدة الشيخ راشد الغنوشي، غلب عليه البعد السياسي الاصلاحى والتنظيمي، بحيث رجع إلى تونس، حاملا عقيدة سلفية تيمية ألبانية إخوانية، مع فكر مالك بن نبي التنويري، وتجربة مع القومية البعثية، ومشاهدات اوروية، ثم ينخرط مع جماعة الدعوة والتبليغ في أول تماس له مع الجماعة الاصلاحية الأولى، التي كان محركها وملهمها: الشيخ الشاب عبد الفتاح مورو. ممّا مهّد له خلال العشرية السابعة من القرن الماضي بالاندماج مع هذه الجماعة كشابٍ مدرّسٍ للفلسفة طبع الجماعة الإسلامية بطابعه الخاص، من حيث إدخاله في فكرة التنظيم، وسلفية الألباني وابن تيمية، والتأثر بالفكر السلفي الإخواني، وبكتابات أهم ممثلي الحركة الاسلامية في العالم من أمثال مالك بن نبي، والمودودي،

وقطب والبنا وغيرهم... في حين أن القاعدة العقدية المغاربية كانت مالكية أشعرية.

يحدّد الشيخ الغنّوشي مقوّمات التدين السلفي الإخواني الذي طبع الحركة في تلك المرحلة في أربع مرتكزات :

1 . المنهجية السلفية التي تقوم على محاربة البدع في مجال العقائد، ورفض التقليد المذهبي في المجال الفقهي، والعودة في كل ذلك إلى الأصل، الكتاب والسنة وتجربة الخلفاء والأصحاب والتابعين، ومحاربة الوسائط بين الخالق والمخلوق بتقديس الأضرحة، ومحاربة الطرقية والبدع في الدين، وتقوم هذه المنهجية أساساً على أولوية النص المطلقة على العقل.

2 . الفكر السياسي والاجتماعي الإخواني، والقائم على تأكيد شمولية الإسلام، ومبدأ حاكمية الله سبحانه، ومبدأ العدالة الاجتماعية.

3 . منهج تربوي يركز على التقوى والتوكل والذكر والجهاد والجماعية والاستعلاء الإيماني والأخوة.

4 . منهج فكري يضم الجانب العقائدي الأخلاقي، على حساب الجوانب السياسية والاجتماعية، وقيس الأوضاع والجماعات بمقياس عقيدتي، ممّا ينتهي معه الأمر إلى تقسيم الناس إلى أخوة وأعداء. ص

: 36 مع نهاية السبعينات، وانتصار الثورة الإسلامية في إيران حلم الشيخ الغنوشي بثورة إسلامية كبرى تهدد عروش الأنظمة العربية والإسلامية، ولم يُخف انبهاره بالثورة الإيرانية، وبشخصية الإمام الخميني؛ بل طوّر رؤية فلسفية تتماشى، ورؤيته الفكرية، وأحلامه.

ص: 37

لقد كان الشيخ راشد الغنوشي على وعي باستحالة الجمع بين سلفية وهابية، ألبانية، تيمية؛ وعقيدة الشيعة، لذلك سارع إلى مبادئ السلفية الجديدة بقوله: « ولا تعني السلفية هنا، كما هي عند البعض حرّاً على المذاهب الفقهية، أو العقديّة.. كلاً، فهذا تمزيقٌ لكيان الأمة.» ص : 30

ويعتقد الشيخ راشد الغنوشي أنّ المنهج السلفي الذي حرّره شيخ الإسلام ابن تيمية لم يُكتب له النجاح بسبب ثقل الانحطاط، وما أقامه من تحالفٍ رهيبٍ بين التقليد المذهبي، والطريقة، والحكم الجبري. ويمضي الشيخ الغنوشي في تمجيد، وتعظيم المنهج السلفي الذي حرّره ابن تيمية، وقد تولى المصلحان الكبيران ابن عبد الوهاب، والدهلوي إحياءه في الأمة، فينسب الشيخ إلى هذا النبع كلّ التيارات الإصلاحية غير العلمانية في الوطن العربي. يخلص الكاتب محمد

الصالح الضاوي إلى أنّ المكون السلفي التيمي الوهابي جزء لا يتجزأ من عقيدة الشيخ راشد الغنوشي، لكنه لا يتبنّى هذه العقيدة بطريقة شكلاية نمطية، بل يكيّفها مع الواقع التونسي حتى تتلاءم مع بيئة مالكية أشعرية صوفية، كما يكيّفها مع الحركية التنظيمية الثورية الإخوانية التي انبنت عليها الكثير من المفاهيم السياسية، وطوّرها الشيخ بحكم تنوّع الرافد الفكري والثقافي عنده، إذ طعم مكوّنه السلفي بعقلانية حديثة أخذت من رواد الإصلاح الإسلامي، ومن فلاسفة الغرب، ومن مصطلحات الفكر الاشتراكي. إن السلفية الوهابية تختفي، وتظهر بحسب الأحداث عند الشيخ راشد الغنوشي، وهي معطى ثابت في عقيدته، طبعت شخصيته طوال مراحل حياته.

رؤية الكاتب محمد الصالح الضاوي هذه يشترك معه فيها الكاتب، والبحث المصري المتخصص في الدراسات الإسلامية ، الأستاذ عبد التواب عبد الله، حيث يقول في دراسة له: « وتلاحظ الدراسة أن هناك مناطق غير واضحة، ومحل اشتباه في خطاب الغنوشي، يقترّب فيها من الأطراف المتشددة، بينما لديه مناطق أخرى يكون فيها رمزا وداعية للاعتدال، كما تلاحظ الدراسة كذلك التناقض

بين مرونته النظرية في كثير من الأحيان، وتصلباته العملية، سواء في إدارة الحركة، أو في الموقف السياسي عموماً. »
وبعد: الكتاب بالرغم من حجمه الصغير، إلا أنه يتضمّن مجموعة من الأفكار والرؤى التي طرحها الكاتب محمد الصالح الضاوي جديدة بالاهتمام لا من حيث تركيزها على الشخصية المحورية في الكتاب: الشيخ راشد الغنوشي فحسب، بل بتأريخ الحركات الإسلامية، وظروف نشأتها، وتطوراتها المعاصرة، وروافدها الفكرية.

محمد الصالح الضاوي

صدر له عن دار الكتب العلمية ببلنات:

1. مفاهيم أساسية.
2. الأولياء والتصوّف.
3. أساطير الأولين.
4. كن فيكون.
5. زواج المتعة في الإسلام.
6. أولى الحقائق الوجودية الكبرى.
7. حقائق العرش عند ابن العربي.
8. أعمال أخرى قيد الطبع.

رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين..

عنوان الكتاب: رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين.. أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه.

تأليف : مجموعة من الأساتذة الصفحات: 625

إصدار: دار البصائر الجديد للنشر والتوزيع / الجزائر

بقلم : بشير خلف

المرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله من كبار المثقفين الجزائريين الذين حملوا هموم أمتهم، ومجتمعهم، متسلحين بالأصالة التي استمدّوها من الثقافة العربية الإسلامية؛ والفعالية التي اقتبسوها من المناهج الغربية الحديثة المُحكّمة، في ظل ظروف مثبّطة ومعاكسة، لم تمنعهم من الإبداع، والمساهمة في تنوير المجتمع والأمة وحلّ مشكلاتهما، وخدمة العلم والثقافة، وترقية الإنسانية. الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي ولد سنة 1927م بضواحي البدوع.. المنطقة الفلاحية غربي قمار بولاية الوادي، وهو باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين، وهو من رجالات

الفكر البارزين ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني في الجزائر
والعالم العربي، والذي غادر دنيانا مساء يوم السبت 14 /12/
2013 م.

الرجل كان موسوعة علمية وفكرية.. تلاميذه وتلميذاته الذين
نحلوا من فكره الغزير، ومنهجه العلمي الفريد.. هؤلاء الذين لا يمكن
حصرتهم منهم العديد صاروا أساتذة، ودكاترة في الجامعات الجزائرية
وخارجها، كما أن الأساتذة الذين زملاؤه، وأصدقائه، والذين عملوا
معه في الجامعة الجزائرية، لم ينسوا تلكم السنوات التي كان لهم فيها
نعم الصديق، ونعم العالم الموسوعي، ونعم القدوة. هؤلاء جميعا رأوا
أنهم مدينون إليه، فكان الوفاء من خلال مساهمتهم جميعا في كتاب
أشرف على إعداده، وجمع مادته الدكتور أ. د. محمد الأمين بلغيث.

الراحل أبو القاسم سعد الله القائل:

« إن الأمم التي لها حضارات قادرة على الصمود والمقاومة، هي التي
تفرض نفسها على الحضارات الأخرى، وهي التي تمجد تاريخها،
وتفتخر به، وتجعل له من الرموز ما يصبح به مثلاً يُحتذى، وهدفاً
جديراً بالتقليد؛ بينما الأمم التي ليس لها نصيبٌ في الحضارة، أو
تخلقت عن ركبها بعض الزمن نتيجة عجزها عن المقاومة تحاول أيضاً

تجيد ما عندها من رموز، فترفعهم إلى عليين، وتحيطهم بهالة تجعلهم بهالة يبلغون بها السماء.»

الكتاب:

(رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين.. أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبابه)
صدر في آخر سنة 2014 عن دار البصائر الجديد للنشر والتوزيع بالجزائر العاصمة كتاب من الحجم الكبير بعنوان: " رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين.. أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبابه " جمع مادته، ونسقه، وأعدّه الأستاذ الباحث الدكتور محمد الأمين بلغيث أستاذ بجامعة الجزائر العاصمة.. يقع الكتاب في 625 صفحة تضم إضافة إلى مقولة (كاستهلال) من مقولات الراحل سعد الله ومقدمة الكتاب، 58 موضوعا وألبوم صور، تُستهلّ هذه المواضيع بموضوع للمرحوم موسوم بـ : " من أجل أحفادنا " جاءت فكرة هذا الكتاب بعد رحيل المؤرخ سعد الله فقد حرص الدكتور بلغيث على جمع ما كتب أحباب المرحوم في مختلف الجرائد، وأردفها ببعض الأعمال والمواضيع السابقة لأحباب سعد الله لتنضاف إلى ما نشره الدكتور نجيب بن خيرة بمناسبة رحيل سعد الله، لتُجمع هذه وتلك في سفرٍ واحدٍ لعلّه يساعد في معرفة مختلف الرؤى حول سعد الله .

مقولة الاستهلال

يتحسّر سعد الله على الحيف الذي تلقاه الكتابة في الوسط
الجزائري الذي لا يعترف بقيمة الكتابة، ولا يقدر المكتوب، ولا
الكاتب :

« إنّ ظروف الكتابة في الوسط الذي نعيش فيه، لا يعترف بقيمة
الكتابة، ولا يقدر المكتوب، ولا الكاتب؛ ولذلك تجدنا نكتب
بالأسنان، والأظافر، والأصابع المقطوعة، والكراسي المبتورة، وإننا
نسير رغم أنف التيار المعاكس؛ وليس لنا مكانٌ نختلي فيه إلاّ المقابر،
ولا منضدة نكتب عليها إلاّ الجماجم، ولا وسيلة نتشبّث بها غير
القنوط ، فمن يظنّ أننا نكتب ما نكتب على مناخذ الرّخام ، وأرائك
الحرير فهو غرّ، أو مغرور. إننا نمارس فنّ الكتابة كما يمارس (سيزيف)
جرّ صخرته، أو كما عاش المتصوّفون لحظة تعذيب النفس، والبدن في
سبيل الخلاص...»

المقدّمة : في مقدمة الكتاب يؤكد الدكتور بلغيث على أن كلّ من
عرف سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين يعترف بأنه من طينة الكبار
الذين رسموا لأنفسهم مساراً جمع بين التعمّق في جميع مجالات المعرفة
الإنسانية، وخبراتها المتعدّدة وتراكماتها عبر العصور، وبين اعتزاز شديد
برموز وطنه العربي الإسلاميّ الكبير. إذ يُعتبر سعد الله رائداً في تاريخ

الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى استقلال الجزائر، وهذا ما أدرك قيمته كلُّ من عرف معاناة المؤرخ طيلة أربعة عقود من الزمن التي استغرقتها عملية الجمع والتحرير، والتنسيق، ثم الطباعة والتوزيع للقسم الأكبر من عمل المؤرخ .

ومن أجل هذا وغيره يقول بلغيث أحبينا أخلاق، ومسار وشخصية هذا المؤرخ، والإنسان الذي سار على درب الصالحين من أمته، مُدرِّكاً قيمة الزمن مهما طال، وأهميّة التدوين لأنه هو مَنْ نبّهنا أنّ أسلافنا، (أو هذا الشعب المعوان على الخير) يصنعون التاريخ ولا يحسنون كتابته وتدوينه؛ لهذا كتب سعد الله ما كتب، ودوّن ما استطاع تدوينه، لأنه هو الذي قال ذات مرّة :

« إنّ الجزائر رغم ما يُقال عنها لا تتنكّر لمن أحبّها، ولمن عاش وعانى من أجلها، فالوطن يطلب من أبنائه الوفاء والتضحية، ولكنه لن يضيع حقّهم في المكانة اللائقة بهم في حوليات تاريخه، وسجلاّت رموزه. إنّ هذه الجزائر الحبيبة عاشت بقيم، وثوابت أخلص لها أجدادنا وكافحوا من أجلها، وماتوا دونها، ولا يليق بجيلنا اليوم أن يتنكّر لهم تحت أيّ عنوان أو مبرّر.»

جاءت فكرة هذا الكتاب بعد رحيل المؤرخ سعد الله فقد حرص الدكتور بلغيث على جمع ما كتب أحباب المرحوم ممن تتلمذوا عليه، وصار بعضهم أساتذة باحثين أكاديميين درّسوا إلى جانبه، وزملاؤه لسنوات، بل لعقود .. كتبوا عنه في مختلف الجرائد، وأردفها ببعض الأعمال والمواضيع السابقة لأحباب سعد الله لتضاف إلى ما نشره الدكتور نجيب بن خيرة بمناسبة رحيل سعد الله، لتُجمع هذه وتلك في سفرٍ واحدٍ لعلّه يساعد في معرفة مختلف الرؤى حول سعد الله .

مواضيع الكتاب

يتصدّر مواضيع الكتاب، موضوع للدكتور سعد الله بعنوان : من أجل أحفادنا ..ص: 9 ، مؤرخ في: 13 جوان 1990م يتحدث فيه عن مآسي العهد الاستعماري الفرنسي بالجزائر من خلال الشواهد التي عاناها وذاق مرارتها الشعب الجزائري، وهي جرائم بشعة في حقّ الإنسانية: الإبادات الجماعية، النفي الجماعي، مصادرة الأراضي، والممتلكات الردية والجماعية، والأوقاف، الحكم بالإعدام والنفي، أو السجن المؤبد، والأشغال الشاقّة، والغرامة الثقيلة، الاعتداء على حرّيات الموتى، هذه جرائم بشعة في حقّ الأفراد والجماعان؛ أمّا الجرائم في حقّ الدولة فهي أشنع وأبشع . يلي هذا الموضوع بالكتاب

التعريف بسيرة ومسيرة المرحوم سعد الله: كتاريخ ولادته ومكانها ومساره المعرفي والتحصيلي، وتخصصه، والوظائف العلمية والإدارية التي تولّاها في الجزائر وخارجها، والمؤتمرات والمحاضرات، النشاط الأكاديمي، المؤلفات، الترجمات، البحوث، آخر مشاريعه.

من الأساتذة الذين وردت لهم مواضيع بالكتاب:

الدكتور ناصر الدين سعيدوني، الدكتور محمد الأمين بلغيث، الدكتور محمد العربي معريش، الدكتور المرحوم إبراهيم مياي، الأستاذ محمد رحاي، الأستاذ لحسن بن علجية، الدكتور عثمان سعدي، الدكتور رابح لونيسي، الدكتور إبراهيم لونيسي، الأستاذ مصطفى داودي، الأستاذ مازن مطبقاني، الأستاذ أحمد بن السايح، الدكتور علي غنابرية، الدكتور قمعون عاشورين الأستاذ محمد نوار، الدكتورة فوزية محمد بربون، الدكتور عبد الكريم عوفي، الدكتور ميلود عويمر، الأستاذ محمد بوعزارة، الأستاذة صاري أمينة، الأستاذ الأخضر رحموني،

مواضيع الكتاب كلها تنويه واعترافٌ بخصال الراحل العلمية والأخلاقية، وإقرارٌ بما قدّمه للعالم العربي والإسلامي، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

العين والمدك .. تحت المجهر

عنوان الكتاب: العين والمدك .. تأليف : ياسين سليمانى

عدد الصفحات: 164

إصدار: دار شهر زاد للنشر والتوزيع بالمملكة الأردنية الهاشمية.

بقلم: بشير خلف

كتابٌ من نوعٍ آخر فيه طرحٌ جريءٌ، وتحليلٌ معمقٌ، وتشخيصٌ لقضايا فكرية من قديم أرقّت المفكرين، ولا تزال، وقد تبدو أنّها لم تزل بعد في بدايات التحليل، والتفكيك، وإلى الغوص الفكري، والرهان ليس في الوقوف عندها وفهمها، وإحالتها إلى التقاعد الفكري؛ إنما الرهان من خلالها سؤال المستقبل..

قضايا فكرية شغلت مؤلف هذا الكتاب، ودفعته إلى مساءلة العديد من القضايا الفكرية منها ما له علاقة براهن العالم العربي، ومستقبله، ومنها ما له علاقة بالآخر، ومنها ما هو مشترك، هو واقع معاصرٌ يحتاج إلى طرح العديد من المساءلات، واقع مثلما هو مقيّد إلى ماضٍ يشنّ بمحمولات تخفّف منها الآخر، وانطلق جواباً إلى

الحاضر، والمستقبل بخطى عقلانية ثابتة، مكنته من ترويض كل شيء لصالحه، بينما عالما العربي لا تزال نظرتة إلى الوراثة تشدّه إلى صحاري التيه، ولم يقف على رجليه مصوّبًا قدراته نحو مستقبل يديره العقل، ويصنعه العلماء ولوجًا إلى باحة التاريخ الحقيقي الذي هو صناعة المستقبل.

الكتاب الذي بين أيدينا " العين والمدى.. مقاربات سياقية لأسئلة الوعي في الفكر الهيوماني" للكاتب الباحث ياسين سليمان. الكتاب من الحجم الكبير يتكون من 164 صفحة، صدر هذه السنة 2016 عن دار شهر زاد للنشر والتوزيع بالمملكة الأردنية الهاشمية. قدّم الكتاب الدكتور بشير ربوح أستاذ الفلسفة بجامعة الحاج لخضر بباتنة.

الكتاب بعد التقديم مقسّم إلى أربعة أقسام.

1 - القسم الأول، مطارحات في الفكر العربي المعاصر:

هل يفكر العرب في المستقبل؟ تأصيل النسبية الإنسانية من خلال فقه التحيز، ماذا يعني النموذج الإدراكي؟ الفكر والإعلام بين الإنصاف، والإجحاف: أنموذج عبد الوهاب المسيري. حوار الضفتين: العلمانيون ونقادهم.

2 - القسم الثاني، مطارحات في الفكر الإسلامي :

مقاربة الدكتور محمد عثمان الحشت في تجديد الخطاب الديني، زمن المعتزلة وزمننا. فتح الله كولن، وفقه التسامح.

3 – القسم الثالث: ليس دفاعاً عن ألبير كامبي، مطارحات في الفلسفة البراغماتية، فلسفة الترجمة : قراءة في كتاب: عن الترجمة لبول ريكور.

4 – القسم الرابع، الفن، المعرفة، الجسد:

لماذا الفن ؟ الفنّ والمعرفة، الجسد المُشْتَهَى ، تجاذبات الإيروس واللوغوس.

أيّ موضوع من مواضيع الكتاب الخمسة عشر تشكّل قضية إنسانية فكرية تجذب المتلقّي الجاد، الباحث عن المعرفة، انطلاقاً من شغفه بإجابات متعطش إليها، كي يتواءم مع عالم تصنعه قوة السياسة والمال، والإعلام في الظاهر، ولكن يصنعه المبدعون في شتى مناحي المعرفة، وتطبيقاتها التكنولوجية، استناداً إلى عقل يخطط ، وينفذ، ويستشرف المستقبل، بعيداً عن العقل الخرافي، وتهويمات التفكير السطحي. ولعلّ ما يؤكد قولنا ما جاء في تقديم الدكتور بشير ربوح، وهو يتحدث عن مؤلّف الكتاب ياسين سليمان، وهو يشير إلى كتابته الموسومة بالنبش في مسائل هاربة، استطاع المؤلّف أن يمسك بها:

«... ربّ نصّ كتبه باحثنا يؤدي بنا إلى طرح ما هو قمينٌ بأن يضطلع بالنبش في مسائل هاربة انشغل بها الإنسان العربي، والكوني معاً؛ وهي

من ناحية أخرى تعتبر مجازفة فكرية يريد أن يجمع فيها بين قضايا تخصنا نحن العرب في هذه الألفية الجديدة، وقضايا تجذب إليها الإنسان في صورته الكونية، مثل: الفن، المعرفة، الجسد الإيروسى، وارتباطه بالقدس اللوغوسى. نعتقد (د. بشير ربوح) أن باحثنا يسعى إلى بلورة رؤية مستقبلية سيكون هذا الكتاب / المقاربة، توطئة جريئة من أجل إدراك المعنى بكلّ عزمٍ معرفي، وقصدٍ أنطولوجي، وبعيون صادقة..»

من المواضيع التي تساءل عنها الكاتب في بداية الكتاب بعد التقديم: " هل يفكر العرب في المستقبل ؟ سؤال في منتهى الوجيهة، والعرب في أوج التشرذم، والتناحر؛ بل والتقاتل، بينما الآخرون في اكتساح لعوالم أخرى، تمكنوا منها، ووظفوها لصالح شعوبهم معرفة، اقتصادا، مالا، إعلاما، مواطنة، وحدة قارية،...

إن المستقبل للمجتمعات التي تشارك، وستشارك في توظيف، وإنتاج المعرفة بكفاءة في شتى مناحي الحياة؛ فالمعرفة ثروة وقوة في آنٍ معاً، حيث يشكل مجتمع المعرفة مرحلة متقدمة من مراحل التطور الحضاري، وأساس الوصول إلى مجتمع المعرفة هو الارتقاء بمؤسسات نشر المعرفة، ويُقصد بها المدارس، والجامعات، ووسائل الإعلام

والترجمة، ودعم مؤسسات إنتاج المعرفة، وهي مراكز الأبحاث، والتأليف؛ إضافة إلى نسبة السكان الحائزين على براءات الاختراع، ونسبة المشاركة في النشر العلمي، ومؤسسات البحث العلمي، والتقني.

إن العرب بشتى أطرافهم، بما في ذلك دول الخليج التي تعيش البذخ، لا تزال بعيدة عن هذه القفزات، لأنها لم تتحكم بعد في أبعاد الزمن الثلاثة المتمثلة في الماضي، والحاضر، والمستقبل، إذ العرب لا يزالون مشدودين أكثر إلى الماضي.. سؤال كيف نصنع مستقبلنا؟ غير مطروح البتة، وبالتالي فالضبابية هي الطاغية، كل يعيش حاضره بمحمولات ثقيلة من الماضي تعيقه في انطلاقته مستقبلا.

يغوص الكاتب في أفكار العديد من المفكرين شرقا، وغربا ككريم أبو حلاوة في كتابه " العرب والمستقبل .. إرهاصات وعي محتمل"، عبد الوهاب المسيري من خلال فقه التحيز، والنموذج الإدراكي، كما يغوص الكاتب في حوار الضفتين مركزا على " العلمانيون وخصومهم"، كما يتوقف الكاتب مطولا عند مقاربة الدكتور محمد عثمان الخشت في رؤيته " تجديد الخطاب الديني" أسبابه، وضوابطه، وخطواته.

الأهمية الفكرية للدكتور المصري عبد الوهاب المسيري عصية وغير سهلة، فالتفكير عنده يتعامل مع قطاعات المعرفة المختلفة برؤية، ومرجعية قادته للتفسير، والحكم على ما يتعرض له من قضايا فلسفية، معرفية، فكرية. ينخرط المسيري ضمن جملة من المفكرين في الثقافة العربية الذين قالوا بضرورة تبني المعرفة الغربية، واستيعابها، وتمثلها بشكل كامل.

إن الدين الإسلامي دين يؤمن بالتطور، والتغير، ويُعطي مساحات واسعة للاجتهاد البشري، ومراعاة المصالح العامة، وهو دين يرفض في جوهره أن يعتقد الناس في بعض المجتهدين، والفقهاء العصمة من الزلل. من هنا جاءت دعوة الكثير من المفكرين والباحثين إلى التجديد، ويمثل الباحث الدكتور السوري محمد عثمان الخشت أحد الباحثين المعاصرين الذين قاربوا إشكالية العلاقة بين الدين، وفهم الدين، وضرورة تجديد الخطاب الديني لجعله مواكبا للعصر الذي نعيش فيه ، ويرى أن ينصبّ الاهتمام على تجديد المسلمين، لا على الإسلام.

الدكتور الخشت يؤكد أن المسلمين يعيشون في جمود فقهي منذ أكثر من سبعة قرون، في خطاب وعظي إنشائي فارغ، ومنفصل عن

حياتهم اليومية، ولا يزالون يخلطون بين موروثاتهم الاجتماعية التي ورثوها من بيئتهم، وبين المضمون الإسلامي النقيّ المستمد من القرآن العظيم، والسنة النبوية المطهرة الصحيحة.

لئن حرص الدكتور الخشت على تجديد الخطاب الديني كي يكون متوافقا مع قضايا المسلم المعاصر، ويمسّ كل قضاياها الذاتية، ومع الآخر؛ فإن الأستاذ فتح الله كولن الفيلسوف التركي ينصبّ فكره على ثقافة " التسامح " التي عنده سعة صدر، ورحابة أفق في النظر، وليس بمعنى التنازل، ولا المداهنة، تسامح يعبر عن أخلاق الشجعان، لا الضعفاء ما داموا يحتفظون في صدورهم بحيوية الفكر. فإن كان بإمكاننا أن نحب الآخر، فلماذا لا نتحابّ ؟ والتسامح إذا كان منوطا بالفرد، فهو ينسحب على الجماعة أيضا؛ بل إن ضمان وجوده بين جماعة وأخرى أهمّ، وأكبر تأثيرا وفائدة.

توقّف المؤلف مطوّلا عند ألبير كامّي، مبرزا رأيه في أن هذا الكاتب المتشظي بين الجزائر وفرنسا قد تحوّل في خطابات الكثير من الجزائريين إلى مجرد حالة من العبث، وصراع الأنتلجانشيا الجزائرية بين بعضها البعض، يطفنون فيه نشوة الكلام المفضي إلى نتائج لا معنى لها. يبدو للقارئ المتأمل في عنوان الموضوع الذي وسم به المؤلف

المدخل " ليس دفاعًا عن ألبير كامبي " أنه عكسيا سيكون من المدافعين عن أفكاره، ومواقفه، وهو كذلك، مبررًا إيمانه بأن المبدع أيًا كان مجال إبداعه يخلق مشروعية الدفاع عن نفسه من خلال منجزاته؛ فالنصوص أو الأعمال تفرض نفسها، وتدافع عن ذات صاحبها، وبذلك يصبح الإبداع مجابها لكل انتقاد، يمكن أن يشهر سيفه في وجه المبدع؛ تساؤلنا في هذه الحالة : أو حتى لو كانت هذه النصوص تثمن الشر والظلم نحو الآخرين ؟

إذ المؤلف له طرْحُ آخر غير طرح أغلب المثقفين الجزائريين الذين ظهرت فيهم حمى الوطنية، والدفاع عن رموز الوطن بشكل مفاجئ. حيث يطرح السؤال التالي: ألبير كامبي، خائن للجزائر، أم لفرنسا ؟ يرى بأن توجه المثقفين الجزائريين في اعتبار تكريم ألبير كامبي مساسًا بالسيادة الوطنية، والذاكرة التاريخية، يمكن قراءته من منطلق الخلط بين ما هو أدبي، وما هو تاريخي، وبين الفن والسياسة. تفكير عقيم كهذا يريد من الإبداع أن يأخذ تراخيص من وزارة المجاهدين، ليحتفى بالمبدعين في وقت يشهد فيه العالم ثورات معرفية ونسفاً للقيم البالية، والمعتقدات القديمة، واحتفاء متوهجاً بالقمم الإبداعية أيا ككان توجهها، وأيا كانت إيديولوجيتها.

استناد الكاتب في الدفاع عن ألبير كامى كونه ينتمي أصلا إلى قوم آخرين، فهل ينسلخ عن قومه، وإيديولوجيتهم، وتاريخ آباءه، وأجداده، وما كان يؤمن به والده الذي قُتل في إحدى المعارك إلى جانب الفرنسيين حتى ترضى عنه الجزائر وشعبها؛ فكان من الطبيعي ألاّ يهتّل لاستقلال الجزائر، وهو بالنسبة إليه ضربة قاضية لما يعتبره أملاكه، وموطئ قدمه.

بقدر ما نشمّن من رأوا في إبداع ألبير كامى تحيّا، ولسانا معبرا عن دولة أخرى مستعمرة للجزائر، والإبداع الذي ينحاز إلى ظلم الآخر، والإضرار به، وليس في صالح الإنسانية، بئس به من إبداع؛ والأدهى لما يكرم صاحب هذا الإبداع في الوطن الذي ترعرع فيه، ونشأ، وظهر نجمه الإبداعي فيه؛ لكنه أنكر حقّه في الحرّية؛ ورغم ذلك إننا نقدّر آراء ومواقف من رأوا أن الإبداع مهما كانت اتجاهاته، وإيديولوجيته هو فنٌّ، والفنّ فوق السياسة.

الإبداع فن، يتطور، وينتشر أينما سادت الحرية التي تجعل الفنان يبدع، ويخلق عاليا، ولا إبداع دون فكر، ومن هنا فإن الفن قد لا يعني شيئا إن لم يبرز في شكل أثرٍ يجسّد عظمة الفكر الخلاق ويعطي

القيمة القصوى للجهد الذي يعمل على خلق الآثار الفنية، إن هذا الارتباط بين الفكر والفن يطرح تساؤلاً: لماذا الفن؟

هناك من يربط الفن بالمتعة، وهناك من يراه في المحاكاة، ومن يراه في قدرته التعبيرية، أي نقل انفعالات الفنان، ويراه آخر في الشكل والجمال؛ مؤلف الكتاب الأستاذ ياسين سليمان يرى الفن في كل هذه العناصر، إذ المتعة التي يمنحها الفن قدرته على صنع تمثيلات تجدد، وتنعش الطريقة التي نرى، ونسمع من خلالها الأعمال الفنية، كما أن هناك قدراً من المحاكاة في كل عمل فني لجانب من جوانب الطبيعة بكل مكوناتها المختلفة، والفن هو شكل من أشكال التعبير من وجهة نظر الفنان المعرفية، والانفعالية حول الذات، والعالم؛ كما أن استبعاد الجمال عن الفن يشوه الإبداع الفني، ويخرجه من سياقه العام.

إن الفن يتأسس على ركائز معرفية، ولا تكون للفن قيمته العليا إلا إذا كان مُتضمِّناً هذه الأدوات الفكرية، والفرق بين مبدع قدير له أرضية معرفية، وخبرة في تخصصه الإبداعي، وآخر بسيط المعرفة، والخبرة الإبداعية في تخصصه يتضح الفرق فيما يبدعانه، من هنا يتحتم على الفنان الاجتهاد في اكتساب المعرفة العامة، والخاصة

بإبداعه؛ بل يجب عليه أن يعرف كل شيء عن حرفته، إن كانت كتابة أو تمثيلا، أو نحتا، أو تصويرا، وهي بنية معرفية تنضاف إلى الموهبة التي أودعها الله جلّ جلاله (وليس الطبيعة) في الفنان كي تجعله قادرا على تقديم فنّ سامٍ، وقيمٍ في شكله، ومضمونه.

تفاعل مؤلف الكتاب مع نصوص الأستاذ الشاعر الصوفي بشير ونيسي في كتابه الموسوم بـ " ظل الطير " حيث يرى أن تأصل الوعي بالجسد، وتمثلاته في هذه المدونة يندرج على نحو واضح ضمن سياق الانفتاح على التجربة الجسدية، ومحاولة تطبيع موضوع الجسد، والارتفاع به من درجة المسكوت عنه إلى موضوع قابل للنقاشات في الفضاءات الدلالية؛ ويقدر ما يصرّح بشير ونيسي بأن العقل كوّن يسع كل شيء، فإن الجسد كوّن يتشكل باللذة والنار.

تعدد نصوص " الجسد " وتنوع في كامل كتاب " ظل الطير " بشير ونيسي يوزّع شظايا جسده في كامل جغرافيا عمله. بالحب يتعالى الجسد، ويتنصّل من جحيم هذه العودة الأبدية، وحيث الجسد يتماهى بجسدها فيعلن معترفا: " قمرٌ أنا أسبحن فتلوح، أسرح فتترنح، أشطح، فتصدح، أفتح باب الله فتمرح. نُختتم هذه النصوص معراجها نحو أفقٍ بعلو السماوات لتؤكد أن كل شيء بالجسد جنة.

مؤلف الكتاب من خلال توغّله في نصوص بشير ونيسي، وتأثره بها معرفياً وجمالياً، كان رأيه ختاماً: « قرأت بشير ونيسي، فظهر لي عزّافاً يحمل نبوءات العالم، أو ساحراً يجنّب في قبعته أحلاماً، وأمانيات، وتعاويد للسعادة.. قرأت بشير فتوهّجت روحي؛ وهذا أكبر ما يمكن لكاتب أن يقدمه لقارئ.»

سياحة فكرية عقلانية ممتعة في هذا الكتاب، فلئن استند إلى شخصيات فكرية من الشرق والغرب تركت بصماتها في الفكر الإنساني، وامتد إشعاعها التنويري عبر فضاءات جغرافية واسعة ك: الفيلسوف المصري عبد الوهاب المسيري، المفكر السوري عزيز العظمة، المفكر السوري محمد عثمان الخشت، المفكر الجزائري مالك شبل، هاشم صالح، المفكر التركي فتح الله كولن، ألبير كامي، الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي البراغماتي، الفيلسوف الفرنسي بول ريكور، الفيلسوف لفرنسي هنري برغسون، الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، الشاعر الصوفي بشير ونيسي.

إن الكاتب ياسين سليمان عندما يستعرض أفكار هذه القامات الفكرية من الشرق والغرب لا يأخذها مسلّمة؛ بل يخضعها للتحليل والمساءلة، والدّحض إن لزم الأمر، هي مطارحات فكرية يبدي فيها

رأيه هنا، أو موقفه الثابت هناك بناء على قناعات تستند إلى أرضية معرفية ترسّخت لديه. إلا أنّ ما يجعل للكتاب الذي بين أيدينا قيمة معرفية، أنه إضافة إلى أفكار تكم القامات التي أشرنا إليها أعلاه؛ فإن الكاتب ياسين سليمان المشتغل على المسرح أكثر، له منهجه الفكري المستقل في الكتاب، ينحو نحو العقلانية، يناقش بهدوء، ويطرح أفكاره بثقة، وهذا ما يجده القارئ في كلّ ما نشره في العديد من المجلّات العربية، والمواقع العنكبوتية. أطروحاته، وأفكاره تتوافق مع كتابات الفيلسوف اللبناني علي حرب، والمفكر الجزائري الراحل محمد أركون، والمفكر السعودي محمد محفوظ، وغيرهم من الكتاب الذين يتخذون العقلانية منهجا ...

النصّ الرقميّ ...

عنوان الكتاب: النصّ الرقميّ، وإبدالات النقل المعرفي

تأليف : الدكتور محمد مريني عدد الصفحات : 116

إصدار: المجلة العربية السعودية / جانفي 2015

بقلم : بشير خلف

الكتابة الرقمية ظاهرة فرضها التطور الهائل الذي شهدته وسائط الاتصال في العصر الحديث بفضل الثورة التكنولوجية التي جعلت من العالم " قرية كوكبية صغيرة" . وقد أسهمت المنابر الإلكترونية عامة ومواقع التواصل الاجتماعي بشكل خاص في خلق حراك اجتماعي شمل مختلف مناحي الحياة. وهو ما نجم عنه تحول عميق في الحياة المعاصرة على جميع الأصعدة والمستويات. لكونها شكلت فضاء حراً لتدفق المعلومات والتعليق على الأحداث. لقد أحدثت الثورة الرقمية تغييراً جذرياً في مفهوم إنتاج النصوص وتلقيها؛ فلم يعد المؤلف مجبراً على المرور من مصافي دور النشر كما كان الأمر سابقاً، لأن المواقع

الالكترونية المختلفة تتيح إمكانية هائلة لكل فرد لكي ينشر ما يشاء. لقد أصبح النص الرقمي معماراً تسهم في تكوين نظامه الاستطقي أدوات ووسائط متنوعة يدخل فيها اللغة والصوت والصورة واللون والضوء والحركة؛ فكثير من النصوص تلجأ في بنائها الجمالي إلى عناصر سيميائية مختلفة مثل الموسيقى واللوحة والإلقاء الصوتي إلى جانب العلامات اللغوية التي لم تعد حركتها تنمو في شكل خطي تسلسلي ولكنها أصبحت متحركة تنمو بصورة تشعبية في اتجاهات مختلفة. ومما يثير الانتباه أن هذه العناصر التي أصبحت تدخل في صميم تكوين النص الرقمي أنها لم تعد مجرد مصاحبات إشارية وعلاماتية ينحصر دورها في إضاءة النص، ولكنها أصبحت أدوات مهمة في توجيه القراءة وبناء المعنى من خلال الإيحاء بالمحتمل الدلالي للخطاب.

مما يعني أن طبيعة الوسيط الحامل للعلامة وشكل عرضها يحددان الصيغة الملائمة لتلقي النصوص والخطابات؛ فالنص الرقمي لا يعبر طريقه نحو التشكل والدلالية إلا بمصاحبة مجموعة من الوسائط التي ترافق أو تحيط به في صورة شبكة معقدة تشتغل خارج القوانين

التي تميز نظام المعنى كما تفرزه الانتاجية النصية المتشكلة في فضاء مادي قد يكون الورق أو غيره.

النص الرقمي وإبدالات النقل المعرفي

المجلة العربية السعودية الشهرية كعادتها منذ سنوات ترفق عدد المجلة الشهري بكتاب قيمٍ تُهديه إلى قرائها؛ ففي شهر جانفي 2015 كانت الهدية الكتاب 219 يحمل عنوان "النص الرقمي، وإبدالات النقل المعرفي" بقلم الدكتور محمد مريني، أستاذ في كلية الناظور بالمغرب، باحثٌ قديرٌ، نشطٌ، له ما ينيف عن العشر أعمال صادرة منذ 2006 حتى هذه السنة 2015 بهذا الكتاب الذي بين أيدينا. الكتاب من الحجم المتوسط: 116 ص، 14 في 21 سم.

الكتاب :

مقدمة. الفصل الأول: ما قبل النص الرقمي . الفصل الثاني: النص المتشعب التجسيد الأمثل للنص الرقمي. الفصل الثالث: أنماط النشر التراثي في المكتبات الرقمية العربية. الفصل الرابع: الثورة الرقمية وإبدالات الكتابة والقراءة. لائحة المصادر والمراجع.

في المقدمة: يشير المؤلف إلى إن القرن العشرين هو عصر النص بامتياز، فيه انهارت الفلسفات العقائدية الكبرى لتحل محلها الإبدالات المعرفية التي تحققت بفضل كشوفات الدرس الألسني، وما

رَسَّخه من بدائل منهجية، منها وفيها سيعرف مفهوم النصّ تنويعات
عدّة بعد ارتباطه بعالم المعلومات، والفضاء الشبكي.

ما قبل النص الرقمي

في الفصل الأوّل، ما قبل النصّ الرقمي يقف المؤلّف عند
الجذر اللغوي للفظة (نصّ) في المعاجم العربية كلسان العرب لابن
منظور، أساس البلاغة للزمخشري، الرسالة للشافعي محمد بن إدريس،
والمعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى، وآخرين. ليخلص إلى أن المعنى
اللغوي الذي هو: الرفع، الإظهار، البروز، بلوغ منتهى الشيء وأقصاه
يختلف عن معناه لدى علماء الشريعة الإسلامية. كما توقف عند معنى
النص في الاصطلاح عند العرب المحدثين، إذ تنوّعت التعريفات بتنوّع
الاتجاهات والمدارس الفلسفية والنقدية، ليكتفي بتعريف واحد للدكتور
عبد السلام المسدي في حديثه عن مفهوم النص الأدبي، فالنصّ "
...إنه جهازٌ ينظمه تماسكٌ لغويٌّ خاصٌّ"، "هو فعلٌ أو ظاهرةٌ
سيمائية تشمل علامة مادية، ولغوية متعدّدة المعاني؛ إيحائية تتجاوز
أحادية الدلالة إلى تعدّديتها" من هذا المنطلق يشير بعض الدارسين
إلى وجود بعض الاضطراب والتشويش في تداول هذا المصطلح عند
العرب المحدثين، حيث هناك اختلاف بين مفهوم النص في الثقافات
المتفرعة عن الجذر اللاتيني، وبين الثقافة العربية الإسلامية، فالنصّ في

الثقافة اللاتينية هو النسيج الذي تولدت عنه مفاهيم عديدة بالتشبيهات والاستعارات، وفي الثقافة العربية الإسلامية؛ معنى النصّ ليس النسيج، إنما هو الظهور والبروز.

لقد كان النص مرتبطاً بطريقة تكوينية بالكتابة، ذلك أن النصّ هو ما كان مكتوباً، ربّما لأن طريقة تشكيل الحروف في الكتابة بصورة خطية تُوحى أكثر من الكلمة بما تحمله الكتابة من معاني الانحباك، والتشابك التي توجد في العمل المكتوب، إذ يتعلّق الأمر هنا بضمانة الأشياء المكتوبة التي تجتمع فيها وظائف المحافظة التي تتمثّل في الثبات، واستمرارية التدوين الهادفة إلى تصحيح ما يعترى الذاكرة الإنسانية من هشاشة. إنّ النصّ المكتوب سلاحٌ ضدّ الزمن، وضدّ النسيان، وضدّ مكرّ الكلام. وذلك في مقابل الكلام الشفهي الذي يمكن التراجع عنه، وتبديله، وإنكاره بكل سهولة.

ارتبط مفهوم النص تاريخياً بعالم من المؤسسات مثل: القانون، الكنيسة، الأدب، التعليم؛ حيث النصّ موضوع أخلاقي: هو الكتابة باعتبارها تشارك في العقد الاجتماعي. لقد افترضت الاتجاهات الكلاسيكية أنّ النصّ يحتوي على معنى قارّ ونهائي؛ أي أنه يعبر عن الحقيقة ويحتوي عليها، ومع ذلك فإن الحقيقة ليست معطاة سلفاً إذ

كثير من النصوص يحتاج إلى تأويل لاستنباطها، ولذلك تعددت مدارس تأويل النص واتجاهاته.

عرف مفهوم النص في العقود الأخيرة تغيرات جذرية مع تيارات ما بعد الحداثة.. لم يعد النص كياناً مغلقاً محملاً بالأحكام القطعية التي تقوم على أن المؤلف وحده يمتلك اليقين، ويعرف الحقيقة المطلقة، إذ صار النص كياناً مفتوحاً محملاً بدلالات لا تنتهي. من هذا المنظور سيتغير مفهوم القراءة التي ستُعرف بأنها (عملية صبّ المعاني في النصّ)، وليست عملية استخراج المعاني من النص، أو عملية الوصول إلى ما يريد الكاتب قوله.

النصّ مفتوح ينتجه القارئ في عملية مشاركة، لا مجرد استهلاك، هذه المشاركة لا تتضمن قطعة بين البنية والقراءة، وإنما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة، فممارسة القراءة إسهامٌ في التأليف.. النص لم يعد منتجاً نهائياً، بل أصبح يُنظر إليه في تعالقه مع نصوص أخرى دليلاً منفتحاً متعدد الدلالات. تؤشّر هذه التحوّلات على الإبدالات التي يأتي بها النص الرقمي خاصة في شكله المتطوّر الموسوم بـ (النصّ المتشعب) .

النصّ الرقمي المتشعب

في الفصل الثاني الذي يحمل عنوان " النص المتشعب ..التجسيد الأمثل للنصّ الرقمي " يتحدث المؤلف عن الشروط التي تسم النص بأنه رقمي وليس ورقيا، إنْ أشرنا إلى نص بأنه رقمي، فإن هذه الإشارة تحيلنا على الوسيط الذي يُعرض من خلاله هذا النص. لذلك فإن الرقمية تحيل على الارتباط الوثيق بين النص وجهاز الحاسوب الذي تُعرض من خلاله هذه النصوص، سواء على مستوى الإنتاج ، أم على مستوى التلقّي.

وهذا ما يجعل النصّ الرقمي يتميّز عن كلّ من النص الشفهي، والنص المخطوط، والنص المطبوع التي تُنقل بوسائط أخرى. لكن النص الرقمي ليست له صورة ثابتة واحدة، بل له تنويعات عدّة تحققت من خلال الإمكانيات المتعدّة التي يتيحها كلّ من الحاسوب، والفضاء الشبكي.

لقد كان ظهور النصّ المتشعب ثمرة لمباحث ودراسات متنوعة، وذلك في سياق فكرة " التناغم بين المعارف " التي مفادها أنّ هناك تناغمًا وتداخلاً بين الحقول المعرفية المختلفة. شكّل النصّ المتشعب منعطفاً جديداً قياساً إلى النصّ التقليدي الشفهي والكتابي، وذلك بالنظر إلى جملة من الخصائص التي تجعله يستوعب مجموعة من

الإضافات غير موجودة بالنص الورقي، كأنظمة الخط، والصوت، والصورة، كما تقوم إضافة لذلك بين النص وقارئه علاقة تناظرية وغير أحادية، فعملية التواصل لا تكون في اتجاه واحد، كما هو الحال في النص التقليدي.

تستند عملية القراءة إلى فكرة مركزية مفادها أن النص المتشعب مزود بوصلات تسعف في تنشيط عملية القراءة، والانتقال إلى الشذرات النصية المختلفة التي يمكن الوصول إليها من خلال النقر على " الفأرة" إلا أن توالي عمليات الانتقال بين النصوص من شأنها أن تحوّل القراءة إل متاهة تجعل من المتعدّر على القارئ ضبط المسار بين نقطة الانطلاق، ونقطة النهاية يشعر بأنه فقد الاتجاه، وقد لا يعرف أين هو، بل قد لا يتذكّر ما كان يبحث عنه. إن توالي فتح النوافذ الجديدة يدخل القارئ في دوامة تفقد النص المتشعب منطقته الخاص، ذلك أن كاتب النص المتشعب يُخضع نصّه لبناء خاصّ من خلال إضافة روابط، وشبكات، ووحدات معلومات. حين يقرأ القارئ نصا ورقيا فهو يعرف المكان الذي يوجد فيه، لأجل ذلك يستخدم بعض المعالم كأرقام الصفحات، وفهرسة المحتويات، ورأس الصفحة... الخ ؛ أمّا في النصّ المتشعب فلم تعد هناك حاجة إلى

أغلب هذه المؤشرات الدالة. إنك خلال قراءة النص المتشعب لا تسافر على طول نهر هادئ كسفرِكَ مع النص الورقي، بل تسلك طرقاً مختصرة، أو منعرجات مرور من عقدة إلى أخرى، ومن وصلة إلى أخرى تفتح هذه النافذة أو تلك، وأحياناً عدة نوافذ لها علاقة بموضوع النص المتشعب، أو لا علاقة لها به، وكلها مفتوحة في الحاسوب، تذهب إلى هذه النافذة أو تلك، أو تعود إلى هذه، وتترك تلك. إذ يمكن أن تجد نفسك في غابة من المعلومات.

يستغلّ النص المتشعب كل الإمكانيات والبرامج التي يوفرها الحاسوب، وشبكة الإنترنت، وهي إمكانيات تخضع للتطور المستمر، وتتراوح بين أنواع الخط المختلفة الأشكال، والصور الثابتة والمتحركة، والأصوات، والأنغام الموسيقية، والأشكال الجرافيكية، والألوان المختلفة. إنّ أهمّ ما يميّز النص المتشعب هو تعدّد أنظمة العلامات التي يوظفها. لقد ارتبط النص الورقي بالحروف والألفاظ .

قد يحمل هذا النص صوراً لكنه لا يمكنه أن يحمل العناصر الصوتية، وهذا يحدّ من قدراته التواصلية والتفاعلية. إنّ هذا التنوع من الوسائط يجعل النص الرقمي المتشعب بمثابة (نصّ جامع) يتيح إظهار طابع التعددية الممكنة لتعريف الشيء الواحد. لقد أتاح النصّ

المتشعب الرقمي للقارئ العربي إمكانية معالجة النصوص بطريقة آلية، والبحث في متنها بطريقة أفقية وعمودية. من هنا تحرّرت النصوص من قبضة الخطيّة الصارمة التي فرضها عليها جمود الورق. إنّ معالجة النص الرقمي المتشعب hypertext إضافة إلى ما تتيحه للمتلقّي من خدمات، وتسهيلات تكشف مسارات التشعب داخل النص المفرد، فهناك أيضا إمكانية ربط النص بخارجه، أو ما يعرف بعملية " التناصّ البيني " ، فقد وسّعت تكنولوجيا الوسائط المتعددة من مفهوم التناصّ الذي لم يعد مقصورا على الربط بين الوثائق التي تُقدّم في شكل نصوص، بل بينها وبين الوثائق الإلكترونية الأخرى في شكل أصوات وصور ثابتة .

النشر التراثي الرقمي أنماط

بذل المؤلّف جهدا كبيرا في البحث عن تواجد النصوص الرقمية المتداولة في الثقافة العربية الرقمية، ليقف عند المكتبات مكتفيا بمكتبات التراث، حيث يرى أن ما يجمع بين هذه المكتبات هو أنّها تُقدّم نصوص التراث مرقّمة، أي عوض تقديم المنتج مطبوعاً على الورق كما تفعل ذلك المكتبات التقليدية، تعتمد إلى رقمنة الكتب وتجعلها جاهزة للاستعمال، من خلال الخدمات التي يتيحها كل من الحاسوب، والفضاء الشبكي .

هناك اختلاف بين هذه المكتبات على مستوى الرقمنة وتنوعاتها

التي يخضع له المنتج المعرفي، هناك:

1. مكتبات تكتفي بتصوير المادة اعتماداً على الماسح الضوئي.
2. مكتبات تعيد كتابة المادة، اعتماداً على برنامج معالج الكتابة.
3. مكتبات تعرض المادة اعتماداً على تقنية الربط التشعبي.

الثورة الرقمية وإبدالات الكتابة والقراءة

يذكر مؤلف الكتاب وكما هو معروف بأن الكتابة الرقمية تتطلب من المؤلف أن يكون ملماً بفنون الميديا والبرمجة، وبأبجديات التعامل مع الحاسوب حتى يستطيع معالجة نصوصه على برامج الكتابة، معنى ذلك أن الاشتغال على النصّ الرقمي يستلزم معرفة تقنيات قصد التعامل مع الحاسوب، والإمكانيات التي يتيحها من خلال وصلاته، وأيقوناته، وبرامجه المختلفة، كما يفترض في المؤلف أن يحسن التعامل مع الشبكة العنكبوتية لكي يستفيد من الخدمات التي تقدمها.

إنّ التعامل مع النصّ الرقمي يعطي إمكانيات مهمة للتحكم فيه، وتوجيهه وفق متطلبات الكاتب، والقارئ معاً؛ فالبرنامج يسمح للانتقال في جسد النصّ بسرعة وحيوية بواسطة النقر على الفأرة، أو

بتشغيل لوحة المفاتيح، كما يكفي النقر بلمسة واحدة للانتقال إلى أي صفحة، أو فصل، أو مجلد جديد، أو صورة، أو مقطع موسيقي، ويمكن للكاتب وهو يدبج نصّه فتح تسجيل صوتي، أو محاضرة. إن المؤلف الرقمي يشتغل من خلال الحاسوب، وتوظيف البرامج، فهو لم يعد يهتم بالنص الظاهر فحسب، بل بالنص الخفي أو البرنامج، كما يعمل على الإبداع، والصبغة الجمالية للنص.

من المثير إلى أن العالم المعاصر يشهد توغلاً شديداً للثقافة التقنية في الثقافة الفنية، وهو توغّل يصل إلى حدّ الاندماج، إذ صارت الآلات الذكية، والحواسيب جزءاً من عمليات الاصطناع الفني في مختلف الفنون الجميلة كالموسيقى، والرسم، والنحت، والتصوير، والتصميم... الخ. النص الرقمي المتشعب أحدث مظاهر عدة على عملية التواصل المعرفي والثقافي والأدبي في عالمنا المعاصر، منها :

1 . طبيعة النص الرقمي تكوّس الطابع التفاعلي للعلاقة بين الكاتب والقارئ، إذ لم يعد المؤلف يمتلك وحده سلطة القول، لم يعد يكتب وحده؛ بل القارئ يعيد كتابة ما يقرأه بالتعديل، أو الإثراء، أو بالرأي المخالف عقب نشر ما يقذفه المؤلف في الشبكة مباشرة.

2 . خصوصيات النقل الرقمي المتمثلة في سرعة الإنجاز، وانخفاض التكلفة بما يسمح بفتح عالم النشر أمام الجميع.

3 . انحسار موهبة الكاتب أمام ذكاء الآلة، ذلك أن النص الرقمي لم يعد أسير الكتابة الخطية، بل أصبح مجالاً لتلاقي الخط والصوت والصورة، وهذا قد يراه البعض ممّا يكرّس فكرة نهاية المؤلف.

4 . التباس في حقوق المؤلف الرقمي (حقّ) المؤلف مصطلح ذو صبغة قانونية يحيل على نوع من التعاقد الضمني بين المبدع والمستفيد من هذا الإبداع سواء أكان أدبياً، أم فنّاً، أم علماً، أم اختراعاً. من هنا فإن الحقوق تتعلق بشخص المبتكر، ولها علاقة باسمه، وبسمعته، وبشهرته، وهي لصيقة بشخصية المؤلف زمكانياً. لكن ظهور النشر الرقمي قلب هذه الحقوق رأساً على عقب، لذلك يبدو من الصعوبة فرض قوانين (حقوق المؤلف) في صيغتها التقليدية على مستخدمي الإنترنت، أو الأقراص المدججة، أو غيرها من الوسائط الحديثة ، ممّا ظهر على السطح مجموعة من الظواهر:

1 . سهولة استنساخ المواد في البيئات الرقمية، وذلك لوجود العديد من صيغ الانتحال، والتخفي، والتدليس، والقرصنة، والسرقات الأدبية التي يصعب التفتن إليها، وتتبع أصحابها.

2 . الطابع المفتوح للنشر عبر فضاء الإنترنت الذي صار شبكة عالمية، بحيث يصبح من المستحيل التحكم في مراقبة المادة المعروضة مهما كانت وقوة وصرامة القوانين.

3 . وجود حالات كثيرة من الاعتداء على حقوق المؤلف في الأعمال المنشورة في البيئة الرقمية المتمثلة في الاعتداء على النصوص، وإعادة نشرها بأسماء أخرى، أو التصرف فيها، أو نسخها ، أو القصّ منها، وصعوبة تتبّع المعتدين.

إنّ هذا الكتاب بقدر ما يؤرخ لمسار النصّ الإنساني في صورته الشفهية ثم الكتابية، فالرقمية، فإنه يحفّزنا على أن نستفيق من نومنا، ومن غفلتنا على أن عالم اليوم هو عالم انفجار المعرفة، وتنوّع وسائط معالجتها، ونشرها في صور جذّابة، وبواسطة نصوص رقمية متشعبة تترافق فيها المعرفة مع وسائط أخرى تعطي للنصّ بهاءه، وجماليته.

عنوان الكتاب: دور قصص الأطفال في تنمية الطفل

المؤلف: د.عبد الرحمن عبد الخالق

تقديم : بشير خلف

كتابٌ من الحجم الصغير بعنوان: دور قصص الأطفال في تنمية الطفل ..الكتاب الشهري العدد 116 عن مجلة الراصد الإماراتية في شهر أبريل 2016 تضمنت صفحاته 192 : توطئة، وسبعة فصول، و ملحقًا، فالفصول: الإطار المنهجي، قصص الأطفال، والمراحل العمرية للطفولة، القواعد الأساسية لكتابة قصص الطفل، قصص الطفل، وسائط قصص الطفل، أدب الأطفال في العالم، وفي البلدان العربية، تمثّلات دور قصص الأطفال في تنمية الطفل.. ثم نموذج من حكايات الأطفال وقصصهم.

يُجمع الباحثون والمهتمون بأدب الطفل على أن للأطفال أدبا وثقافة خاصة بهم، وأن القصة أحد أهمّ مكوّنات هذا الأدب؛ إذ لا يوجد طفلٌ لا يَشُدُّ لسماع قصة شائقة؛ بل إن بعضهم لا يستطيعون النوم إلّا بعد أن تداعب أجفانهم ندى الحكايات والقصص المنعشة.وقد

غرت هذه القوة السحرية للقصص الباحثين على خوض دراسة قصص الأطفال وحكاياتهم، ومكامن السحر فيها، ومدى تأثيرها المأمول على تنمية الطفل، فاستنبطوا مفاهيم ونظريات شكّلت فناراً يهتدي بضوئه كُتاب أدب الطفل، والوسائط الإعلامية التي يُقدّم من خلالها الأدب.

لقد فطن الجميع إلى أن هناك أدبا للصغار، كما هو الحال بالنسبة للكبار، وجاء ذلك بعد إدراكهم بصورة علمية أن الطفل ليس رجلا صغيرا ، إنما هو طفلٌ صغيرٌ، أو إنسانٌ صغيرٌ؛ ولذا فهو لا يتميّز عن أبيه، وأخيه الأكبر منه من حيث البنية الجسمية فقط؛ وإنما نفسيا، وعقليا، ولغويا، وحركيا، وانفعاليا. وللأطفال أيضا رؤيتهم الخاصة لكل ما يحيط بهم، ولهم أسلوبهم في معالجة كثير مما يواجههم؛ لذا يقتضى أن تُراعى هذه الخصائص عند الكتابة للأطفال.

تُعدُّ قصص الأطفال أحد أنواع الأدب الطفلي، إن لم تُعد أهم هذه الأنواع التي تضمّ الأغاني والأشعار، والنص المسرحي، والرواية أحيانا، وغير ذلك من الموضوعات، والكتب العلمية؛ فالقصة كما هو واضحٌ هي أقرب الفنون الأدبية إلى نفس الطفل، وأحبّها عنده،

تشده بأبطالها، وتثيره بأحداثها، فيُقبل عليها، ويستمتع بها، ويطلب المزيد منها مرّات عديدة.

قصص الأطفال فنُّ أدبيّ قوِيٌّ وكتابي يكتبه الكبار للأطفال وفق فلسفة معيّنة. ولكي تحقّق قصص الأطفال غايتها وتُفعل فعلها السحري في جذب اهتمام الطفل، وإثارة مشاعره، وتفعيل خياله، ويكون لها التأثير المرجوّ في تشكيل شخصيته، يُقتضى أن تُراعى الخصائص النمائية للطفل النفسية، والعقلية، واللغوية، والانفعالية.

أجمع الباحثون في أدب الطفل على المكانة الرفيعة التي تحتلها القصة الطفلية في إطار أدب الأطفال، لما تحتويه من عوالم مذهشة، تحفّز ذهن الطفل، وتستفزّ مخيلته ليسبح في فضائها، يعايش من خلالها البشر والحيوان، يغوص في بحارها ينتقل بين شعابها المرجانية، ذات الألوان الجذابة، يداعب أسماكها، يتعرّف إلى أسرارها، يطير في السماء على أجنحة من ضوءٍ، يزقزق مع العصافير وبصاحبها إلى مراعيها، حيث الفراشات والزهر والنحل، يصعد عاليا يلامس النجوم والكواكب.. يكبر وتكبر معه معارفه.

ولتؤتي القصة الطفلية، وأدب الطفل إجمالا أكلها وتصل إلى الطفل بما تحتويه من قيمٍ موضوعية يتطلب توافر جملة من الاشتراطات

الضرورية من قبل الخائضين غمار الكتابة للطفل والسالكين دروبها العصبية؛ من ذلك القرب من الطفل بما أنه كائن بشري له خصوصياته، والتمكّن من اللغة، والدرس المتقن لعلم التربية، وعلم النفس، وتحديدًا علم نفس النموّ بما يمكنهم من معرفة خصائص كل مرحلة عمُرية، واهتمامات الطفل، واحتياجاته.

أن تكتب للطفل يعني أن تكون على معرفة كافية بحقيقة الطفل، وبمخاطباته النفسية، غير مقتصرٍ في معرفتك على الخصائص النفسية، واللغوية، والعقلية، والانفعالية لكل مرحلة عمُرية؛ بل مدركًا للفروق الفردية بين الأطفال ذوي العمر الواحد، وللغوارق البيئية الثقافية، فما يعرفه طفل المدينة لا يعرفه طفل الريف، والأمر نفسه للغوارق الطبقيّة والاجتماعية.

رُفُوفٌ

كتاب: العُرف المعروف في: قسمة أغواط وتراب سُوف

تأليف: الأستاذ ماني محمد

تقديم : بشير خلف

النخلة أصلُ الحياة ، فمنذ القديم والإنسان يستظلّ بسعفها،
ويصنع من جذوعها سقوفاً وأعمدة لبيوته، ويتخذ منها ومن جريدها
وقوده، ويصنع منها الأسرّة، والحبال، وسائر الأواني والأثاث.. ويتخذ
التمر بأنواعه طعاماً مُغديّاً، ويعلف بنواه أنعامه، ويصنع منه عسلاً
وخللاً إلى غير ذلك؛ والإنسان السوفي تاريخُهُ مع هذه الشجرة المباركة
معروفٌ بحميميته معها.

تتميّز زراعة النخيل في المجتمع السوفي عن باقي المناطق
الصحراوية بخصائص فريدة من نوعها، من حيث الصراع مع الطبيعة
القاسية، والتعب في ترويضها كي يهبي الظروف الحياتية المناسبة
للنخلة كي تنمو، وتنتج، وكذا كيفية زراعة النخيل، وتعدّد أنواعه،
واختلاف ثماره التمرية التي تتوجّها دقلة نور التي كان لها الأهمية

الغذائية والاقتصادية، إذ تحتل المرتبة الأولى من حيث النوعية بين نخيل الجزائر بأسرها، كما كانت من أهم الموارد الاقتصادية لسكان المنطقة منذ القديم ولا تزال .

إن الإنسان السوفي منذ منتصف القرن التاسع الهجري اعتنى بالفلاحة، وأبدع أيما إبداع في حفر الغيطان، وزراعة الأنواع المختلفة من النخيل، فكانت النخلة محور حياته فهي مصدر رزقه، ومنها صناعة حاجاته، وعلاجه، وألعابه، وحوّلها كوّن عادات وتقاليد؛ ثم كان التمر مادته الأساسية لحياته، فجزء منه يُدخّر للاستهلاك، وما زاد عن الحاجة يُباع في الأسواق، أو يُقايض بمواد أساسية غذائية كالقمح، والشعير وغيرهما .. ثمار النخلة كلها خيرٌ وبركةٌ

إن نجاح الإنسان السوفي في هذه الربوع الصحراوية القصية في إبداع الغوط الذي من خلاله تحوّلت الصحراء القاحلة الجافة إلى واحات ظليلة تجود بالعطاء، والخير، وتمنح الحياة والبقاء للإنسان والحيوان يعود إلى ثقافة ترسّخت عبر عشرات السنين قوامها نُظْمٌ وقوانين عُرفية تحدّد العلاقات ما بين المتجاورين المشتغلين في زراعة النخيل، من حيث حدود الغيطان، وتقسيم البراحات المجاورة . أي الفضاءات الغير المستغلّة فلاحيا؛ ونظرًا لانعدام التوثيق في ضبط هذه

العلاقات، ابتدع السوافة وحتى لا يُظلم أحدٌ من المتجاورين ما أصبح يُطلق عليه بـ " العُرف " كقانون يُعمل به أسسه الأوائل، وأقرّ بالعمل به الأواخر، ولا يزال معمولاً به إلى يوم الناس هذا، ولا أحسبُ أنه سيُنحلي عنه .

إن الذين كتبوا عن زراعة النخيل في وادي سُوف عديدون سواء من المنطقة قبل عشرات السنين، أو وافدين ضمن التواجد الاستعماري بالمنطقة كعسكريين، أو مدرّسين، أو في السنوات الأخيرة من طرف باحثين وكُتاب.. أغلبهم تحدثوا عن زراعة النخيل في ربوع سُوف : عملية انجاز الغوط أو الهود، رفع الرمال، غراسة النخيل، خدمات رعاية الغيطان، النخيل، تلقيح النخيل، جني التمور..

إلا أن صاحب هذا الكتاب الأستاذ الجامعي ماني محمد توغل في الموضوع، وتعمّق فيه لا باعتباره أستاذا عالج الموضوع أكاديمياً؛ إنما باعتباره يعرف الكثير عن " الأعراف " التي تُسير العقار الفلاحي في ربوع سُوف، وخاصة منطقة قمار، بل يشتغل فيها، ولديه خبرة كبيرة في ذلك، ولا نبالغ إن قلنا إنه الوحيد حتى يومنا هذا الذي تصدّى في كتابه هذا إلى التحدّث عن موضوع " العُرف " من منظور تاريخي، وخبراتي، وسنده في ذلك الواقع الميداني، والشيوخ الكبار العارفون،

والخبراء الفلاحيون الذين اعتمدتهم المحاكم في فضّ النزاعات قديما وحديثاً، وكذا الوثائق المُستمدّة من المحاكم الشرعية القديمة، خاصة في محكمتي الوادي، وقمار، وكوينين.

الجديد في الكتاب أنه تعرّض بإسهاب في الفصلين الثاني والخامس إلى الغوط ، وملكية النخيل، وكيفية انتقالها وفق الوثائق العُرفية المكتوبة خارج المحاكم والمعمول بها حتى يومنا هذا، وتحديد الشروط التي تتضمنها هذه الوثيقة، وأنواعها، وكذا الوثائق الرسمية الحديثة التي فرضت نفسها أخيراً كالعقود المسجلة لدى المحافظ العقاري، وعقود الشهرة، والحيازة، والدفتر العقاري، أو العقود القديمة الصادرة عن المحاكم الشرعية القديمة بالوادي، وقمار، وكوينين.

استطاع الباحث محمد ماني أن يتتبع كل القضاة الذين تداولوا على هذه المحاكم بالاسم، الأصل، تاريخ تويّ القضاء، بداية من 1839م إلى آخر قاضي بمحكمة الوادي الشرعية المرحوم السيد قريميدة بشير سنة 1979م، واستعرض أهمّ الوثائق في نقل ملكية النخيل، أو الأراضي الفلاحية كعقود البيع في المحاكم الشرعية وتسميتها، ودعّم الباحث قوله بعقود مستخرجة من سجلات المحاكم الشرعية. لئن الباحث محمد ماني التقى في بحثه هذا مع من كتبوا عن

موضوع الغوط كإبداع متفردٍ قام به الإنسان السوفي، وعمارته، ونظام غراسة النخيل به والعناية به، والحفاظ على ما بداخله من نخيل ومزروعات أخرى؛ إلا أنه إضافة إلى ما سبق ذكره؛ تفرد بالتعرض للشكل الهندسي للقوط، ومسافات الغراسة به، وكيفية قسمة تراب القوط، وتسميات القوط، وتحديد البِراح، وقياس عرض العامي، وخروج النخيل بأسطوره، والتعريف بأمناء الفلاحة الذين يُنهون النزاعات استنادًا إلى " العُرف " .

إن الباحث دَعَمَ بحثه في الكبيرة والصغيرة بمخططات بيانية، وبصُور ملتقطة جَوًّا، وأخرى عن قُرْبٍ توضّح ، وتقرب الفهم لدى المتلقّي العادي، كما تساعد المتخصّص في تخصّصه؛ ولطالما أن العُرف في ربوع سُوف لا يزال معمولاً به أكثر من القوانين العقارية الحديثة فإنّ هذا الكتاب تأكيداً سيجد مكانته لدى كل من يهتم أمر العقار الفلاحي؛ لأن ما جاء به سيدعم ما هو جاري العمل به، ولا يتعارض البتّة مع ما تعمل به النظم الحديثة في ضبط العقار وتنظيمه.

قمار في: 09 جويلية 2014

الأستاذ بشير خلف

" ثغراتُ في حياتها.. قصصٌ "

عنوان الكتاب : ثغرات في حياتها تأليف : زهرة بلعروسي

تقديم : بشير خلف

الكتابة النسوية كتابة تلجأ فيها المرأة المبدعة إلى توظيف الأدب كأداة للاحتجاج على أوضاعها الاجتماعية، والأسرية، والتعليمية، والسياسية، وعلى أوضاع المرأة عموماً داخل المجتمع الذكوري، وللاحتجاج على تصدّي الرجل لها، كيفما كان هذا الرجل أباً، أخاً، زوجاً.

وما أجمع عليه النقاد، والمتابعون للإبداع النسوي السردى على أنّ مبدعة السرد قصة، أو رواية تتكى على التجربة الذاتية، وكذا معاشتها في مجتمعها الصغير، والكبير لقضايا المرأة، ومعاناتها في يومياتها مع أطراف المجتمع، كما تتكى الكاتبة الساردة على ما تسمعه من بنات جنسها، هذه المعاناة الذاتية، والمتعدّية لغيرها، تشكل المعالم الرئيسة من معالم السرد النسوي الذي هو تعبير عن هموم حقيقية معيشة تحياها الكاتبة الساردة بتفصيلات كثيرة تخدم الغرض السردى. كذلك فإن القدرة على توظيف اللغة وسلاستها تُضفي حميمية مع المتلقي من خلال الوصف، والتحليل، والحوار ممّا يعطي الساردة فُرصاً

كي تشكل شخصياتها، وأحداثها بطريقة أقرب الى الواقع، وبتيمات فنية مبدعة.

ما سبق يتراءى لنا أنه يتوافق، ويتمهى مع النصوص القصصية التي بين أيدينا في هذه المجموعة القصصية الموسومة بـ " ثغرات في حياتها " للقاصّة المبدعة زهرة بلعروسي التي تمرّست منذ مدّة في إبداع الخاطرة الأدبية، وعُرفت بها، لتتوجّها بأول باكورة تصدر لها في أدب الخاطرة بعنوان: " ومضات دافئة.. حين يننّ الوجد يلد الحرف " سنة 2015 عن دار الثقافة بالوادي؛ لتكون هذه المجموعة القصصية التي بين أيدينا مولودها الثاني.

نصوص المجموعة الاثنتين وعشرين نصّاً عبارة عن لوحات قصصية، باستثناء النصوص السبعة الأولى هي قصص قصيرة، لوحات قصصية سكبت فيها القاصّة معاناة المرأة مع الرجل في دنوّها منه، وتعربة هذا الرجل العنيد في جحوده، ونكرانها لتضحياتها معه، ومن أجله. في المجموعة لوحات قصصية عن الطفولة البئيسة، واليتم ومعاناة الأم في تنشئة أطفالها، وكما كل إبداعات المرأة التي لا تخلو من فجائية الطلاق، وعدم الإنجاب، وغيرهما من تماسك الأسرة، والصدام

مع المسؤول الإداري، مع الزوج، وحتى مع الصديق المثقف المبدع..
المرأة في كل الحالات هي الضحية.. هي نصوص هذه المجموعة.
هذه اللوحات القصصية في غالبيتها صادمة، فجائية،
انكسارات، وعشرات لعينات من نساء عشن، ويعشن بين ظهرائنا.
ولعلّ القاصّة زهرة بلعروسي تشاطرنى الرأي في هذا من خلال ما تقوله
في البداية، في " كلمة القاصّة ":

« وكم تؤرقنا أحلامنا حين تسبح بنا في دنيا الأوهام، وكم تؤلمنا حين
تضمحل ابتسامتنا، وتدوب في خضم تفاصيل الحياة المعقدة، والمليئة
بالثغرات، نعم تلك الثغرات التي عاشتها بطلات هذه المجموعة، كل
حسب أوجاعهن.» ومن عنوان المجموعة أيضاً: " ثغرات في حياتها"، لا
عجب أن تكون أغلب النهايات مأساوية. لا شك أن القارئ يلمس
متغيرات على مستوى اللغة، والوظيفة، والرؤية، والحوار، وهو تغير
يمثل درجة من التطور الفني التقني للساردة بالعروسي. هذه النصوص
القصصية تعتبر نقلة نوعية لدى الكاتبة التي تمرّست على كتابة الخاطرة
الأدبية، وها هي تخطو خطواتها بثبات في فضاء السرد القصصي.

قمار في : 02 فيفري 2016

إضاءات...

تأليف: المرحوم شرادة الجيلاني إعداد وإشراف: بشير خلف

تقديم: بشير خلف

عرفتُ المرحوم شرادة الجيلاني سنة 2010 من خلال بداية ظهوره في الساحة الثقافية، المتمثل في كتابة بعض الأفكار، أو التعاليق على ما يُنشر في شبكة التواصل الاجتماعي " فيسبوك "، لنتقي بعد ذلك في مقرّ عمله، حيث سلّمته بعض إصداراتي، وإصدارات الجمعية الثقافية رابطة الفكر والإبداع، ثم سلّمته في مرّة ثانية بعد ذلك كتب مديرية الثقافة بالوادي تشجيعا لمبدعي وكتّاب ولاية الوادي سنة 2011 ؛ ومن خلال هذا التواصل بيننا حشّثته على حضور النشاطات الثقافية كالندوات، والأماسي، والملتقيات، ليتمّ ذلك في البداية باحتشام منه، ثم يندمج كليا في هذه الأجواء الإبداعية، والفكرية، ليعلمني أنه بصدد إعداد بعض المواضيع الفكرية، ورغبته في نشرها في الصحف الجزائرية اليومية، وبعد لأيّ أرسل إليّ موضوعه الأول، ويطلب منّي الاطلاع عليه بدءا. الموضوع ارتأيت أنه مهمّ ويكشف عن قلمٍ واعد خاصة في الأدب النقدي،

شجّعته على أن ينشره، وبحكم الموضوع، وتاريخيته، وارتباطه بالمرحوم الدكتور أبو القاسم سعد الله، طلبت منه أن يرسله إلى الصحيفة الأسبوعية " البصائر " التي تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. المقال المشار إليه بعنوان: " عظماء الأمة " مستوحى من مقال ثري للدكتور أبو القاسم سعد الله بعنوان: " تقزيم العظماء " في الجزائر، حيث نُشر مقال المرحوم شرادة، فكانت فرحته كبيرة، ليتلوه بنفس الصحيفة مقالاً ثانٍ لشرادة بعنوان: " المراسلة الغربية : بين ابن باديس، والشيخ الطاهر لعبيدي " المقال مستوحى من مقال للدكتور أبو القاسم سعد الله ضمّنه كتابه: " تجارب في أدب الرحلة " . ما فتى المرحوم شرادة الجليلاني أن نشر المقالين في صفحته الفيسبوكية، وفي موقع " أصوات الشمال ". وتتوالى مقالاته النقدية بعد ذلك بوتيرة متسارعة، وهي المقالات التي حرص على جمعها في كتابه: " مقاربات نقدية .. رؤى وأفكار " الذي صدر ضمن مطبوعات مديرية الثقافة بالوادي سنة 2014 . كانت فرحته كبيرة بهذا الكتاب الذي هو باكورة أعماله النقدية، حيث أهدها لأغلب المثقفين في ولاية الوادي، والولايات الأخرى، وكذا أغلب وسائل الإعلام، ممّا شجّعه على ولوج عالم النقد الأدبي بثقة، وبإصرار على تطوير أدواته من اطلاع أكثر

على مناهج النقد الأدبي المعاصر، والحرص على المتابعة والاطلاع المستمر على كل ما يصدر من إبداعات سردية في الجزائر سيما سرديات الرواية. كان يؤمن بأنّ النقد الأدبي المعاصر تجاوز وظيفة الكشف عن محاسن النصّ، وعيوبه فحسب إلى ما أهمّ من ذلك؛ إذ النقد ما لم يُفعم بالحيوية، وما لم يهدف إلى اكتشاف العناصر الذوقية لكل نصٍّ متميز، فإنه من مصدّات تطوّر الأدب؛ ففي هذه الحال النقد في جوهره تنقيب عن التفرد، وتحرّج عن الخصوصية؛. وهذا يعني أن النصّ إمّا أن يُشيع ذائقة المتلقّي، وإما أن يخفق في إنشاء متعة وحميمية مع هذا المتلقّي. كما كان المرحوم شرّادة يرى أن الناقد الناجح من امتلك ثقافة عامة، واطلاعا متجددا على ما يستجدّ في الساحة الإبداعية، ومن امتلك أدوات نقدية أصيلة تتوافق مع المناهج المتطوّرة فإنه يساعده على المساهمة بشكل كبير في توجيه الحركة الأدبية. وفاء للمرحوم الذي أثرى الساحة النقدية الأدبية المحلية والوطنية في مدّة وجيزة بعدد المقالات بعضها جمعها ونشرها بنفسه في كتاب " مقاربات نقدية " الذي أشرنا إليه سابقا، وبعضها الآخر الذي نشرها قبل مماته، ولم تصدر في كتاب، فإنني وأنا من عايشته عن قُرب آليتُ على نفسي أن أبحث، عن هذه المقالات في الصحف اليومية :

يومية النصر، يومية الجمهورية، يومية الحياة الجزائرية، يومية القدس العربي، صحيفة الفكر الإلكترونية، وموقع أصوات الشمال، مسارب الثقافية، الحوار المتمدن ، رابطة أدباء الشام، صفحته الشخصية الفيسبوكية، فكانت الحصيلة خمسة وعشرين مقالا، آخر مقال كتبه الراحل مساء يوم: 05 / 04 / 2015، وأرسله إليّ طالبا منّي الاطلاع عليه " «أستاذ بشير ... تحية وسلام .. إليك نموذج من المقال الذي حدثتك عليه بالأمس. وهو مازال في صورته الأولى. ارجو الاطلاع عليه .. مع العلم بانه مطلوب كي نزود به كتاب يحضره الكاتب حميد عبدالقادر بمناسبة الذكرى الخمسينية لإبداعات الكاتب رشيد بوجدره..». حرصت على ترتيب هذه المقالات في هذا الكتاب، تبعا لمضامينها، وما رمى إليه كاتبها، فقسمتها إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول أدرجت فيه مقالاته النقدية بعنوان " رؤى نقدية. والجزء الثاني أدرجت فيه انطباعاته على ما رصده في الندوات الفكرية التي حضرها. أما الجزء الثالث والأخير فقد أدرجت فيه قراءاته النقدية للأعمال السردية التي صدرت محليا، ووطنيا. ما دفعني إلى القيام بهذا العمل عوامل عدة منها علاقتي الجيدة بالمرحوم، واستشارتي في كل ما يكتبه، وبنشره، تسمين الكثير من الكتاب والمثقفين محليا، ووطنيا، ارتأيت وفاء

له ووفاء لهم ولثقافة الوطنية ألاّ تضع هذه المقالات، ويلقها النسيان. من شجعتني أكثر الأستاذ الفاضل محمد حامدي مدير دار الثقافة بالوادي الذي تعهد أمام حضور كريم من أقارب، وأصدقاء من مثقفين ومبدعين، وكتاب، ومبدعين في الفوروم الذي نظمه الأستاذ العربي بريك مدير صحيفة التحرير بالوادي بعد وفاة شرادة الجيلاني مباشرة، تعهد الأستاذ حامدي بالتكفل بطبع الكتاب، جديرًا بالشكر والثناء على احتضانه هكذا لكل ما له علاقة بالثقافة، والإبداع، كما أن الشكر والتقدير موصولان لشيخ الزاوية القادرية الأستاذ الحاج أحمد شيباني على مساهمته في التكفل بطبع خمسمائة نسخة من هذا الكتاب. رحل الكاتب والناقد صديق الجميع، وفي نفسه غصة على مسارٍ نقدي خطأ منه غير خطوات قليلة.. إنها إرادة الله، ولا راد لقضائه. رحمه الله برحمته الواسعة وهو الذي غادر دنيانا الفانية يوم الأحد 19 أفريل 2015 نتيجة حادث مرور أليم عن عمر ناهز الـ 57 سنة. رحل الرجل وفي نفسه عشقٌ للجزائر، وحبٌ للأدب، وهيام بالنقد، وتماهٍ مع الفكر والثقافة.

قمار في : 27 / 01 / 2016

فے رحاب الفنون والآداب

الفنّ أيقونة الحياة

سائق سيارة النقل الحضري، ما أن جلست على الكرسي بجانبه حتى سألني عن الوجهة، فحددتها له، وهي دار الثقافة. عَقَّب بسخرية:

- دار العهر والرقص، والفنّ الهابط؟

لم أعقّب، لأن السائق، وأمثاله، وأغلب المواطنين يُقرّون بهذه النظرة للفن والفنانين، والسبب في رأيي يعود لفناني أيامنا، وما يقدمونه للمجتمع من فن مُخَلِّ بالقيم، كما إلى الجهل بالفهم الصحيح للفن، ورسالة الفنان في المجتمع.

بعيدا عن هذه النظرة الدونية لتكن رؤيتنا أوسع لمفهوم الفن، ومكانة الفنان الأصيل. إن الفن في أي مجتمع إنساني ما هو إلا إفراز اجتماعي لرغبات ومتطلبات الإنسان .. أي أنه مُحصَلَةٌ لمكونات، وتركيبات اجتماعية تُلقى بتأثيراتها على كل ما يقع داخل إطارها، وهذا بدوره لا يتناقض مع كَوْن الفن موهبة خاصة، أو تعبيراً فردياً، ولها خاصية التفكير الفردي .

لقد نشأ الفن مع الإنسان منذ أن بدأت الحياة الإنسانية، فمولد الفن ارتبط بمولد الإنسان نفسه في صوره البدائية . كان الفن البدائي مرتبطاً في كلِّ أحواله ، وصوره بغايات نفعية تهم الإنسان، ويبدو هذا واضحاً في صنِّع الإنسان البدائي لأدوات الصيد، والزراعة وأواني الطعام ، والتمثيل ، وإن كان الفنان حينها لم يكن على وعيٍ بالقيم الجمالية التي اكتسبها من خلال الممارسة الطويلة لما كان يصنع تلكم الأدوات، فقد كان ما يهتمُّه ، ويحرص عليه في عمله ، أو فيما يُنتجه أن يصنع آلة حادّة قاطعة، أو وعاء ، أو صورة لحيوان، أو تمثالاً ؛ ومهما كانت هذه النتاجات، أو الصناعات، أو الأعمال، فإن ذاك الإنسان البدائي قد اكتسب طوال المراحل البدائية المختلفة خبرةً حرفيةً التصقت بها عن وعيٍ، أو غير وعيٍ مجموعة من التقاليد الفنيّة ، واكتسب خلالها الكثير من المهارات ، والدربة أهلتها لأن ينتقل من العصور البدائية إلى عصر الحضارة.

وقد أحيا الإسلام ألواناً من الفنون، ازدهرت في حضارته، وتميزت بها عن الحضارات الأخرى مثل فن الخط، والزخرفة، والنقوش في المساجد، والمصاحف، والمنازل، والسيوف، والأواني النحاسية، والخشبية، والخزفية وغيرها .

الفن مجالاته واسعة، وتمسّ حياتنا في العمق، النجار فنان، وهو يبدع في إنجاز أنواع الأثاث، الصّبّاع يبدع في خلط الألوان وتشكيلها وإبرازها، والتفنن فيها على الجدران، الحدّاد في عصرنا هذا أصبح فنانا مبدعا بامتياز في تشكيله أنواع الأبواب، والنوافذ، والأسرة؛ بل نجارة الألمنيوم زادت حياتنا جمالا في تشكيل ديكورات المنازل، والمحلات التجارية، والمرافق، والمؤسسات الخدمائية، التسوّق، وتنوّع البضائع فرضا على التاجر أن يكون فنانا في عرض بضائعه، ومثله بائع الملابس، وبائع الخضّر والفواكه...ولو نتكلم عن فنّ العمارة والإبداع في تخطيطها، وتصميمها، وإنجازها لاحتجنا إلى مجلّدات.

إن علاقة الفن بالتقنية في أيامنا هذه علاقة قويّة، حيث صار يستخدم الفنان تقنيات مختلفة خلّق نتاجه الفني الجمالي، كيفما كان الفن من سينما، موسيقى، خط وتصميم، عمران، حفّر وطباعة، إعلام.....

إن الفن هو تعبيرٌ، وانعكاسٌ للعالم الواقعي المحيط بالإنسان.. فالإنسان مخلوق متحرّكٌ ومبدعٌ.. مخلوقٌ يسعى بدون كللٍ إلى التحضّر، فقد كان منذ بداية حياته الأولى على الأرض يعبر في فنونه

عن طموحاته، ورغباته من خلال صراعه اليومي مع الطبيعة، ومع الكائنات الحيّة على الأرض.. والفن بقدر ما هو تعبيرٌ عن ذلك، وانعكاسٌ له ، فإنه تعبيرٌ أيضا عن المستوى الروحي ، والمحتوى الفكري للإنسان. الفن نشاطٌ إنسانيٌّ ضروريٌّ تفرضه ضروراتٌ غريزية في النفس البشرية، ووسيلةٌ أساسيةٌ للتعبير، والتواصل بين بني الإنسان، بل هو لغةٌ عالميةٌ مفهومةٌ بين كل الحضارات، ولا يحتاج إلى لغةٍ موحّدة للتفاهم كالفنون التشكيلية، والفنون السمعية كالموسيقى، والفنون المرئية كالسينما والمسرح .

إن الفنّ باعتباره أداة تعبيرٍ فرديٍّ واتّصالٍ وتواصلٍ، فإنه يتجاوز هذه الفردية التي تعبّر عن صاحبها ليصبح تعبيراً عن حالة، أو حالات عامّة، أو ثقافة جماعة، أو أمة في زمانٍ معيّن، أو في مكانٍ معيّن .. ثمّ إن حاجة الإنسان للفن ضرورةٌ حياتيةٌ بحكم تكوينه الطبيعي .. يحتاج للفن كمبدعٍ وملتقٍ .

الفنان ذاك الإنسان..

الفنان إنسان لكنه قد يختلف عن الإنسان العادي بأحاسيسه العالية، وتأمله للحياة ، وهو تأملٌ مفتوحٌ يجعله دائما في صراع مع حالات 'المغلق' التي تحيط به.. فالفنان الحقيقي وليس ممارس الفن كما يراه الفلاسفة، لديه خاصية إخراج الأشياء وإظهارها بشكل بارز كما يقول الفنّان الكبير المبدع عادل إمام في حوارٍ له . وانه . أي الفنان . يري ما قد لا يراه الآخرون ؛ وقد كان الفن سباقا في اكتشاف ظواهرَ أعلن عنها علماء النفس بعد ذلك.

نعني بالفنان هنا كلّ من يبدع في الجمال، ويساهم في تهذيب الذّوق، وتربية الإحساس باليراع شعراً ونثراً، بالريشة، بالإزميل، باللحن الشجّي، بالخطّ الجميل.. وكل من يُضفي لمسات فنية على ما ينتجه كالنجّار على أثائه، والحدّاد على ما يصنعه، والدهّان على الألوان التي يتفنّن في مزجها، والزوجة في بصمات تدبيرها، وحسن إدارتها لمنزلها.. كل حركة يقوم بها الإنسان في يومياتها يمكن أن تكون ذات بصمة جمالية وفنية..

الفنّان عاطفة شياجة، وإحساسٌ نبيلٌ.. فالفنّان يخلق العمل الفني ليطلق خصائصه الذهنية والوجدانية من عقالها ، ويحرّرها من الرتابة والنمطية ..من قيود العادات والتقاليد ليتّجه بها نحو الحرية، والخير، والفضيلة، والحقّ، والإطلاقة على الحياة بمنظار الجمال والحسن . إن الفنّان إنسانٌ محكومٌ بغريزته، وتصوّره المميّز للوجود، وخصوصية إلهامه، أي بمختلف الأخيلة والعواطف التي تمرّ بها نفسه، فيفجّرها عقله المتوقّد، وبصيرته الوضّاءة. إن الفنان وهو يبدع فنّه كيفما كان جنس هذا الفن فإنه يستلهم فنّه من روح مجتمعه ، أو من روح المجتمع الإنساني الذي في كل العصور ينشد الحرية، ويأبى الظلم والجبروت، فالعواطف والأخيلة لا تكفي وحدها للتعبير عن الصراع الأبدي بين الخير والشرّ، بين الظلام والتور، بين العدل والظلم .

إنّ الفنّ ما كان ولن يكون حقّاً فنّاً، ولن يبلغ أسمى المراقي، ولن يكون معبّراً عن الإنسان في حياته، ولن يكون أداة نضال، أو أداة تأثير إلاّ إذا كان نابعا بصدق من ذاتية الفنّان، ومن شعوره بفداحة القبح والشرّ وضررهما على الإنسان أينما كان، وبضرورة مقاومتها بطرق المقاومة السلمية أوّلا، وفي طبيعتها الفنون.. يقول الأستاذ إبراهيم المصري في كتابه " خبز الأقوياء " :

(...وإذن فالفنّ لن يكون حقاً، ولن يرتفع إلى روعة التأثير واكتماله، إلاّ إذا نشب الصراع بين الفنّان ونفسه، أي إلاّ إذا غالب الفنّان احتدام عواطفه، وأخيلته، واستطاع أن يروّض تلك العواطف والأخيلة ويكبحها، ويحصرها، ثمّ يتخيّر الصالح القويّ المعبرّ منها، ثمّ يُبرزه وينسّقه، ويصقله، بحيث يخرج العمل الفنيّ كالزهرة المتألّقة السليمة، في ظاهرها نُصرة الجمال المتكامل الأمثل، وفي باطنها فوضى الطبيعة، أي احتدام القوى الطبيعية التي أبدعتها، والتي عرف الفنّان كيف يضبطها أسوة بالطبيعة التي تضبط نظامها، وقوانينها، وهي تختال أمام الناظر في أبداع حُلل جمالها، وأغربها).

الأدب والفنون الجميلة

إن الفنون الجميلة هي ما كان موضوعها تمثيل الجمال،
كالموسيقى، والتصوير، والشعر، والإبداع الأدبي، وفن المسرح،
والغناء، والنحت، وفن البناء والعمارة، والزخرفة، والفلكلور
الشعبي، وركوب الخيل. كما أن " الفنون اللذيذة " هي التي يشعر
مُزاوِلها بلذّة، ومنتعة عند أدائها كالعزف الموسيقي، والغناء، وركوب
الخيل، والرسم. أمّا الفنون الحرّة " ما كان فيها عملُ الفكر أكثر من
عمل اليد كالشعر، والقصة، والرواية. كما أنّ الفنون اليدوية ما
كان فيها عملُ اليد أكثر من عمل العقل كالنحت، والنقش،
والحفْر (1)

إن هذا التقسيم فيه نوعٌ من التداخل بين فنّ وآخر، فماذا
أنت قائلٌ عن الشعر مثلاً وهو فنٌّ جميل، وفي الوقت نفسه فنٌّ حرٌّ
يبدعه الشاعر بمتعة، وكذلك النقش على النحاس، أو الحفْر على
الجبس، بقدر ما هما حرفَةٌ فإن كليهما فنٌّ يدويٌّ ولكنه حرٌّ، والأمر
كذلك بالنسبة للنحت. قد تقول وما الداعي إلى هذا التداخل؟

إن هذا التداخل مبعثه : الخيال، والجمال، والمتعة، والفكر الحر، وحركة الجسم . (2) قد يختلف الناس في تعريفهم للأدب أو فهمهم لطبيعته، أو في تحديدهم لوظيفته أو بيان حدوده، ولكنهم يجمعون على أنه واحد من الفنون الجميلة الستة، أو السبعة إن أضيفت إليها السينما. وربما كان هذا الإجماع أقدم ممّا يبدو للوهلة الأولى، فهو يعود لأفلاطون وتلميذه أرسطو، اللذين نظرا إلى الفنون عامة على أنّها محاكاة، بل إن أرسطو رأى أن الاختلاف بين الفنون إنما يرجع إلى اختلافها في أداة المحاكاة، أو في موضوعها أو في نمطها. ولذا فإن توثيق الصلة بين الأدب والفنون الجميلة أمر مفروغ منه، إذ الأدب مجرد عضو في أسرة، وإن ما يجمع بين أفرادها أكثر مما يفرق.

فالفنون الجميلة، وبينها الأدب، تتبادل الاستلهام فيما بينها، وكثيراً ما تستنزل الموسيقى وحيها من الشعر، وتستلهم الفنون التشكيلية الأدب، ويستوحي الأدب من العمارة والتصوير والموسيقى وغيرها. وكثيراً ما يؤدي فنان واحد عدداً من هذه الفنون معاً. فشاعر العصور القديمة كان العازف على الآلة الموسيقية، والمؤلف الموسيقي، والمنشد في آن معاً، والشعر في مختلف التقاليد الأدبية نشأ نشأة غنائية، وصلته بالفنون الجميلة الأخرى كالموسيقى والغناء والرقص

كانت باستمرار قوية، وحسب المرء أن يشير في هذا السياق إلى المسرحيات الغنائية والأوبرا وسواها في التقاليد الغربية، وإلى الموشحات ورقص السماح في الثقافة العربية الاتباعية، والمسرحية الغنائية في الثقافة العربية الحديثة.

وأكثر من هذا فإن الشعر العربي على مر العصور حافظ على كونه فناً سمعياً بمعنى أنه كان باستمرار ينظم ليلقى وينشد أكثر مما كان ينظم ليقراً، كما هو شأن الشعر العربي الحديث. والشعر، حتى الحر منه والمرسل لا يكاد يستغني عن عنصر الموسيقى فيه. فوزنه يقوم على العروض الذي يحكم جانب الإيقاع فيه، وجمله وبنائه الصرفية وحروفه وأصواته توفر له عنصر اللحن مما يدرس عادة تحت عنوان الموسيقى الداخلية. بل إن ثمة من يحاول اليوم أن يدرس عنصر الإيقاع في أجناس أدبية غير الشعر الغنائي من مثل الرواية والمسرحية وغيرهما، ويحاول أن يقنع ليس بوجوده وحسب بل بوضوحه أيضاً. ولا ينسى المرء بالطبع أن الشعر قد سعى في بعض أطواره إلى أن يقترب من الموسيقى كما هو شأن الشعر الرمزي، وأن الكثير منه كان يؤلف في مختلف العصور والثقافات ليلحن ويغنى، وهو أمر شائع شيوعاً أكبر من أن يحتل أي تمثيل. ومع «أن تضاف الشعر والموسيقى موجود

على نحو أكيد» فإن «أسمى الشعر لا يميل إلى الموسيقى وأعظم الموسيقى تقف من دون حاجة إلى كلمات». (3)

وكما سعى الشعر إلى أن يكون له تأثير الموسيقى، فإنه سعى إلى أن يكون رسماً بالكلمات، بل إن الكثير من الصور التي يحفل بها أحياناً تتسامى لتبلغ في تأثيرها الرسم وربما تفوقه، ولعل هذا ما حفز الكثير من الرسامين والفنانين التشكيليين على استلهام الشعر، وخاصة صورته. وتسعى الرواية باستمرار إلى أن ترسم بالكلمات صورة حية وغنية بالتفاصيل الدقيقة عن الواقع الاجتماعي والطبيعي الذي تصوره في فصولها، مثلما تسعى إلى رسم صور دقيقة لشخصياتها حتى ليكاد بعضها يصبح أنموذجاً، وجزءاً من حياة الناس.

وإذا ما تجاوز المرء الموسيقى والرقص والتصوير فإنه يلاحظ بسهولة أن الفن المسرحي يقوم أساساً على نص أدبي، وكذا الشأن في الفن السابع والفنون المستحدثة الأخرى كالمسرحية الإذاعية والتلفزيونية، والمسلسلات التمثيلية في كل من الإذاعة والتلفزيون فإنها جميعاً تقوم في كثير من الأحيان على تطوير نصوص من أجناس أدبية مختلفة كالقصة القصيرة والرواية وتطويرها وإعدادها للتقديم في وسائل الإعلام الجماهيرية الحديثة، (4) بل إن هذه الفنون قد حفزت الكثير

من الكتاب على الكتابة لهذه الوسائل مما أدخل تغيرات نوعية مهمة
في كتابة الأجناس الأدبية التقليدية ذاتها.

إحالات :

- (1). الأستاذ صالح أحمد الشامي: الفن الإسلامي .. التزامً وابتداعً . ص 20 دار القلم /دمشق .
الفن الإسلامي .
- (2). الأستاذ بشير خلف. الفنون لغة الوجدان ص 42. دار الهدى للطبع والنشر. الجزائر 2009
- (3). الأستاذ عبد الحكيم العبد. بين الأدب والفنون الجميلة: من حصاد تجربة متخصص أدبي،
2006م، ص 3. دار غريب /القاهرة
- (4). مها مصطفى توفيق إبراهيم. الصلة التي تربط الأدب بالفنون الجميلة. مجلة جامعة المدينة
العالمية للدراسات الأدبية. مصر. العدد 25 ..

الرواية نصّ إبداعيّ تاريخيّ مشاكسٌ

يشكّل التاريخ مادةً مهمّةً بالنسبة للأديب، يستمدّ منه موضوعاته وشخصياته وعوالم نصّه، فليس صعباً أو مستحيلاً أن يكون التاريخ إلهاماً وتجربةً ومصدراً لعمل أدبيّ ما، كما يحدث مع التجربة الواقعية المعيشة.

كما أن علاقة الأدب بالتاريخ هي من القضايا النقّدية الشائكة، ذلك أنّ الأدب إبداع يراهن على الخيال لتحقيق الجمال والتأثير، في حين أن التاريخ يراهن على الحقيقة لتحقيق الموضوعية والإقناع. قد يتساءل المتابع للفن الروائي، وبخاصة التاريخي عمّا إذا تأسّست عندنا في الجزائر الرواية التاريخية، واحتلّت مكانتها ضمن المتن الإبداعيّ السردي، ولعلّ المتلقّي النّهيم للرواية، والشغوف بهذا الجنس الأدبيّ منذ ظهوره في الجزائر سواء قبل الاستقلال أو بعده حتى يومنا هذا، وباللغتين العربية والفرنسية سيكتشف أن الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية في الفترة الممتدة ما بين 1920 و1945، بدءاً بأول رواية "زهراء امرأة المنجمي" لشكري خوجة سنة 1928، وما تبعها بينت حتى وإن كان بصورة فردية أن موضوع معاقرة الخمر، ولعب القمار،

وتعاطي الحشيش لم يكن عفويا ولم يكن أبدا مجرد مسألة شخصية أو موضة أدبية لدى هؤلاء الكتاب، ولكنه تجسّد في هاجس اجتماعي تحركه انشغالات، وتساؤلات فكرية وسياسية توضح الحدود الفاصلة بين الحرم، والمباح في الدين وفي القانون المدني، بين حرية الفرد عند المستوطنين والضوابط الأخلاقية بالمفهوم الإسلامي، هذا ما يبين أن أزمة هوية رافقت هذا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ومنذ بداياته الأولى لتتطور فيما بعد.

وما روايات مولود فرعون ومحمد ديب إلا امتداد لهذا المتن الروائي الجزائري الذي تماهت فيه الرواية مع يوميات الإنسان الجزائري، وهمومه، وصراعه مع المستعمر الفرنسي، والتمسك بأرضه وهويّته. فيما يتعلق بالرواية العربية بدءا من نصّ " غادة أم القرى " الصادر سنة 1947 فاتحة التأريخ لجنس الرواية في الجزائر، ثم رواية " ريح الجنوب " لعبد الحميد بن هدوقة 1971 وما تلاها من رواياته الأخرى، وروايات غيره: الطاهر وطار، بقطاش مرزاق، محمد مصايف، محمد عرعار، حفناوي زاغز، عبد المالك مرتاض، محمد مفلح، وغيرهم من جيل السبعينيات وخاصة الذين تفاعلوا مع التحولات المختلفة للمجتمع الجزائري بعد الثمانينات حتى أيامنا هذه كواسيني

الأعرج، محمد ساري، أمين الراوي، الحبيب السايح، الزهرة ديك ،
ياسمينه خضرا، أحمد حمدي(حومة الطلياني) ، وغيرهم الكثير .

لئن كانت الثورة الجزائرية المعين الأساس للرواد، فإن المخضرمين
تحولوا إلى الكتابة عن التحوّلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية،
مما نستخلصه أن المتن الروائي الجزائري متماهٍ مع التاريخ أكثر من
التماهي مع الذات المبدعة. هل هذا محض صدفة أن يكون هذا
التراكم الروائي الجزائري في علاقة قوية مع التاريخ محلّ اتفاق مع
المبدعين الروائيين ؟ أم الأمر مجرد صدفة فرضتها ظروف الجزائر في
عهددها المتسمة دومًا بالحركية، والتغيّر؟ في رأينا هذا هو الصحيح .

إنّ معالجة التاريخ في الرواية يختلف عنه لدى المؤرخ الذي لا
يتعامل مع الخيال، فالروائي قد يتعامل مع حدث تاريخي عاطفيا، وقد
يتوقف عند زوايا غامضة أهملها المؤرخ ليُصبغ عليها مسحات
إنسانية، وفق قول الروائي واسيني الأعرج :

« رهان الرواية التاريخية يكمن في تعقُّب الفراغات التي أهملها التاريخ
الرسمي والأيديولوجي، والاستناد على بعض العلامات المضيفة لتقول
ما أغفله المؤرخون أو طمسته المؤسسات »

لئن فرضت الرواية التاريخية نفسها عربيا وجزائريا، فهذا ليس
معناه أنها وثيقة تاريخية، بل هي إبداع يلعب فيه الخيال دوره، كما أن
لغة الروائي مرنة مطواعة، موشحة بالجمال، مطرزة بالفن، فالروائي
ليس صورة طبق الأصل للمؤرخ؛ فكما يقول الكاتب الفرنسي كييلان
كونديرا :

« الروائي ليس خادماً للمؤرخين، لأنه لا يرغب في رواية التاريخ، أو
التعليق عليه؛ بل أن يكتشف السمات المجهولة للوجود البشري » .

كاتب المذكرات غير حيادي في روايته لتاريخ عصره

يلجأ الكثير من الناس في الغرب إلى كتابة مذكراتهم، أو سيرهم الذاتية، أو يومياتهم بشكل منتظم، أو على نحو متقطع بين آونة وأخرى؛ وقلما نجد مثقفاً أو كاتباً، أو مفكراً لم يجرب الكتابة عن نفسه خلال حياته في شكل يوميات، أو سيرة ذاتية، أو مذكرات، كما يحرص العديد من الساسة على تدوين مذكراتهم الشخصية، أو سيرهم الذاتية بصدقٍ دون مواربة، أو خجلٍ، أو خشية من قول الحقيقة. في الجزائر يبدو أن أهل السياسة أشجع من الأدباء، والمفكرين، والمثقفين في تدوين مذكراتهم، ولو أنّ نشرها يتم بعد ابتعادهم عن مناصب المسؤولية نتيجة التقاعد، أو الإقالة، ومكتباتنا في السنوات الأخيرة تعددت بها عناوين هؤلاء.

ولم أطلع حتى يومنا هذا على مذكرات لأديب من أدبائنا، أو قامة فكرية شغلت الساحة الثقافية، أو تصدرت المشهد الثقافي في ربوع بلادنا سواء في العاصمة، أو الحواضر، أو غيرها من الجزائر العميقة. رحل الدكتور أبو القاسم سعد الله منذ أشهر قليلة، وبحكم علاقتي به عن قُرْبٍ، لا أعلم أنه أصدر مذكرات بالمصطلح المعروف

في حياته، غير أنها صدرت بعد وفاته بعنوان: " حياتي.. مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله عن دار عالم المعرفة بالجزائر سنة 2015م، تحت إشراف ابنه الدكتور أحمد المقيم في أمريكا، الذي وضع مقدمة الكتاب.

والكتاب الموسوم ب: (حديث صريح مع أ. د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة، واللغة والتاريخ) الذي أصدره مراد أوزناجي سنة 2008 بموافقة سعد الله، وبمباركته لما في الكتاب، والذي يلخص المسار الفكري والثقافي لسعد الله لا أحسبه مذكرات؛ وقبله رحل الدكتور عبد الله ركيبي، والدكتور أبو العيد دودو، والدكتور عبد الله شريط، والطاهر وطار، وعبد الحميد بن هدوقة، والشيخ عبد الرحمن شيبان، ومولود نايت بلقاسم، وغيرهم كلهم رحلوا، ولم يكتبوا مذكراتهم التي كان بالإمكان أن تكون إضاءات تزيح العتمة عن عهدٍ عاشوه زاخراً بالأحداث التاريخية الهامة في تاريخ الجزائر المعاصرة.

وفي تقديري الشخصي هذا يعود إلى ثقافة متأصلة لدى المثقفين الجزائريين حتى لدى جيل ما قبل الثورة وخلاها؛ فأين هي مذكرات رجالات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ ربما يقول قائل إن السياسي يسهل عليه كتابة المذكرات باعتباره مساهماً في صنع

الأحداث، والوثائق متوفرة بين يديه؛ بينما الكاتب الأديب في الجزائر غالبا هو بعيد عن صُنْع القرار، ولكنه متأثر به، وبحكم الأحادية الحزبية التي تحكمت لعقود في الكبيرة والصغيرة بما في ذلك هيكله الكتاب، والأدباء، والرقابة التي كانت بالمرصاد لكل ما يخطفه اليراع ولّد رقابة ذاتية صارمة لديهم تلازمهم حتى الآن، والوضع تغير. إن المذكرات تعني فيما تعني النظرة إلى الوراء، كما تعني النظرة خارج النفس للبحث عن شهادة حول حقيقة تاريخية : فرديا، أو جماعيا، أي أنها وجهٌ من أوجه التاريخ المتعددة؛ فكاتب المذكرات لا يكتب أدبًا بالدرجة الأولى، ولكنه يروي تاريخ عصره ومجتمعه من خلال رؤيته، وتقويمه للأحداث، إلا أنه يختلف عن المؤرخ الذي يتعامل مع الحقائق موضوعيا، فقد تجذب الأديب ذاتيته، إنما الأمر يتطلب جرأة خاصة، في قول الحقيقة.

ولعني أرى أن هروب أدبائنا من كتابة المذكرات التي هي بطبيعة الحال تختلف كثيرا عن السيرة الذاتية مردّه إلى عاملين: سوسولوجي، وسيكولوجي، حيث يُعرف عن الفرد الجزائري أنه حريص على إخفاء خصوصياته، والكثير ممّا يخص سلوكياته حتى على أقرب الناس إليه، كما هو حريص على التمثّهر بالعقّة، ونقاء السريرة أمام المجتمع في

حياته، وحتى بعد مماته، وتجنبه لكل ما يؤدي به إلى التبعات. كما أني ومن خلال معاشتي لردود الأفعال العنيفة التي تلت صدور مذكرات ساسة جزائريين: مذكرات الرئيس الراحل الشاذلي بن جديد، الرئيس الراحل علي كافي، محي الدين عميمور، الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، خالد نزار، بلعيد عبد السلام، الطاهر زبيري، أضافت الحيلة والحذر لدى أدبائنا كي لا ينساقوا وراء مغامرة كتابة المذكرات الشخصية تحاشيا لردود الأفعال، وربما العزوف عن كتابة المذكرات لدى أغلب الأدباء الجزائريين يدخل ضمن أخلاق التواضع، وعدم تضخيم الذات .

الملحمة في الشعر الجزائري

مدخل

الملحمة الشعرية قصيدة قصصية طويلة، تدور موضوعاتها حول الأعمال البطولية لأبطال غير عاديين، وأشخاص في الحرب أو الترحال. وفي كثير من الملاحم الشعرية الأسطورية، كما هو الحال عند الإغريق والرومان، يكون البطل نصف إله، كأن يكون أحد أبويه إلهًا والآخر بشراً. وتدور بعض أنماط الملاحم الشعرية حول بطل أو حدث.

الملحمة الشعرية رمزٌ لأمة توحدت آمالها

ولمّا كانت الملحمة قصةً طويلةً ذات حادثة واحدة، أو عدّة حوادث ارتبطت وقائعها بحياة جماعة توحدت منها الآمال، وتشابكت المصالح كان لا بدّ من وحدة موضوع يقوم عليها الفنّ القصصي، وتنساق الأحداث معها إلى الحلّ المنطقي، وتتباين مراحل العمل الواحد في تعدّد الأناشيد لبلوغ الهدف الإنسانيّ المطلوب. وفيما تمتاز الأسطورة بالحقيقة والخيال بالواقع خرافيون، يتصفون بصفات لا يتوفر عليها البشر، وبأمزجة بدائية سريعة التحول والتلون وأحسن شاهد على الشعر الملحمي الإلياذة والأوديسا للشاعر اليوناني

هوميروس الذي يعد أب الملاحم، وقد عاش في القرن العاشر قبل الميلاد .

النفس الملحمي خافت في الشعر العربي

بالرغم من انتشار أدب الملحمة بين مختلف الشعوب والأمم فإننا لا نجد لهذا الفن أثرا في الشعر العربي سوى مقطوعات قصيرة، وقليلة، وقصائد محدودة ذات نفس ملحمي. ولكن لا نستطيع أن نضمها إلى الملاحم العالمية الشهيرة كالتى عند اليونان، والرومان، والفرس. حقا لقد عرف العرب الشعر الحماسي، ذلك الذي كان الشاعر يتغنى فيه بمفاخر قومه، ويهجو خصومهم، ويدخل الحروب شجاعا، ويخرج منها ناجحا، وواصفا تلك البطولة التي خاضتها، أو كانت تخوضها قبيلته. ويقول في هذا المجال الدكتور كمال اليازجي: « إذا جاز لنا أن نُحمّل الشعر العربي شيئا من قبيل الملاحم، فالذي يبدو لي أن هذه القصائد التالية ربما تكون أقرب إلى الملاحم:

1. أرجوزة ابن المعتز في مدح المعتضد (418 بيت) التي تصف قيام بيت العباسي، واستقلاله بالخلافة، وازدهار الخلافة العباسية.

2. أرجوزة ابن عبد ربه في مدح عبدالرحمن الناصر (442 بيت) التي تصف تحوّل الإمارة الأموية في الأندلس إلى الخلافة على يد عبدالرحمن الناصر، وبلوغها في عهده أوج ازدهارها.

3 تائية ابن الفارض الكبرى (761 بيت) التي نستطيع أن نحسبها ملحمة صوفية، تروي حكاية جهاد النفس ضد أباطيل الدنيا، وتحررها من مغريات الحياة، وتساميتها إلى الله من أجل الاتصال به والفناء فيه».

السيرة الهلالية.. إلهام أدبي وإبداع موسيقي

من الباحثين من أهل " السيرة الهلالية" إلى أن تكون " إلياذة العرب " والملحمة الكبرى على رأس السيرة الشعبية العربية، والأشهر في الأدب العالمي، لتظلّ منبعًا للإلهام، وللإبداع الأدبي والفنيّ. ثم إن السيرة الهلالية صنّفتها اليونيسكو من التراث الإنساني باعتبارها من أكبر الأعمال الأدبية، والأقرب، والأكثر رسوخًا في الذاكرة الجماعية، تُقدّر بنحو مليون بيت شعر، تمّ تلحينه، وغناؤه بأشكال عربية تبعًا للهجة، وتراث، وموسيقى، وغنائيات كل منطقة.

البدایات في الجزائر تصدّرتها المفازي

كسائر البلاد العربية لم يعرف الأدب الجزائري في القديم الملاحم، إنما عرف ألوانًا أخرى من الأدب كالمغازي التي كان يلقيها الراوي في السوق، واحتفالات الزواج، والختان، وإقامة النذور للأولياء التي تُسمى " وُعدة"، والتجمعات العامة في الساحات، والمقاهي، والدكاكين.. هي الفضاءات التي يقوم فيها الراوي المحترف بإيصال ما

يحمّله من تراث قصصي إلى الجماعة، حيث يُفسح مجالاً مكانيّاً للراوي على شكل دائرة يكفي لأدائه الحركي، ويتحلق حوله الحضور؛ وقد يكون بمفرده، أو برفقة عازف، أو عازفين، وقد يكون الاثنان، أو الثلاثة من الرواة يتبادلون فيما بينهم الرواية، والعزف مستخدمين الرّباب، والقصة والبندير؛ وهي آلات موسيقية تقليدية شائعة في منطقة الجنوب الشرقي الصحراوي، وهي قصص منظومة وملحّنة. لقد كان رِوَاة المغازي الشعرية يُسقطون مضامين رواياتهم على الواقع المعيش، فالمغازي تحكي حروب المسلمين مع الكفّار، وتشيد بشخصيات البطولة الإسلامية كالإمام علي، وعبد الله بن جعفر وغيرهما؛ ومن المؤكّد أن جمهور المستمعين وهو يستمع إلى هذه المغازي الملحمية يحدث عملية زحزحة للأحداث التاريخية، فتصبح كأنها تصوّر واقع هذا الإنسان الجزائري الراحل تحت ظلم الاستعمار، ويصبح هو امتداداً لجيش المسلمين الأول، ويصبح مستعمر بلاده صورة مكرّرة لجيش الكفّار؛ بل يوظف أحيانا الشاعر الشعبي الجزائري حتى الأسطورة التي تقوم كما هو معروف بالتأليف بين عناصر خيالية، وأخرى واقعية تتجسّد الأولى في الأدوات السحرية، والقدرات الخارقة.

1 - المغازي تتحوّل إلى عملية إسقاط لواقع بئس

فالمغازي وإن كانت تمثل مجموعة من المواقف البطولية لكل موقف منها استقلاله الموضوعي فإنها ترتبط فيما بينها، مُكوّنة وحدة كبيرة من العمل البطولي؛ إننا إذا قمنا بتنسيق جميع المغازي في وحدة متسلسلة لحصلنا على عملٍ أدبي يتوفر على كثير من شروط الملحمة كنوع أدبي وسيكون بطل هذا العمل الإمام علي في نصفه الأول، وابن أخيه عبد الله بن جعفر في نصفه الثاني. الدكتور عبد الحميد بورايو في دراسته لأدب المغازي ميّز بين عدة عناصر تدخل في تكوين هذا الأدب وهي: العنصر التاريخي، العنصر الخرافي، العنصر الواقعي. ما يهّمنا نحن في هذا المجال هو العنصر الواقعي، حيث أهل هذا العنصرُ رواية المغازي للقيام بدورها الوظيفي في المجتمع الجزائري في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فقدمت نماذج بطولية لعبت دورا بارزا في بثّ روح المقاومة، والتحرير على الثورة؛ ونستطيع أن نقدر ما مثلته الصورة النموزجية لأبطال قصص المغازي المروية الذين قاتلوا تحت راية الجهاد، اذا ما علمنا أن جميع حركات المقاومة، والثورات الشعبية التي واجهت الاحتلال الفرنسي في الجزائر ابتداء من ثورة الأمير عبد القادر، وانتهاء بثورة التحرير المسلحة قد رفعت جميعها هذه الراية شعارا قاوم تحته الشعبُ الجزائريُّ الغزو

الاجنبي، ولا شك أن الدور الذي حققه أدب البطولة الإسلامية المتمثل في المغازي في مجال تدعيم وتغذية الشعور القومي في نفوس المواطنين، والتعبير عنه؛ هو دور لعبته السَّيرُ الشعبية على مدى تاريخ الشعب العربي، وهو ظاهرة ترجع الى حيوية التراث الشعبي المُعَبَّر عن الوجدان الجمعي للجماعة الشعبية .

2 - المغازي في الجزائر نتاجٌ أدبيٌ جمعيٌ

ان المغازي المروية شفاهيا في الجزائر رغم انها اعتمدت على النتاج الفردي في البداية هي بفعل الانتقال الشفهي واعادة الانتاج من طرف الرواة المرردين اصبحت نتاجا جمعيا يدل انبعاتها في الجزائر اثناء الاحتلال الفرنسي على استجابة الرواية الشعبية لحاجة جمعية واذا ما قارنا الروايات الشفهية بالمدونات نلاحظ استجابتها للشروط الاجتماعية والسياسية التي عاشها المجتمع الجزائري في ظل الحكم الاستعماري.

3 - الشعر الشعبي الجزائري

إن الشعر الشعبي الجزائري في بداياته الأولى كان شعرا شفاهيا نبع من الوعي الجمعي حتى ولو أنتجه الفرد، لأن هذا الشعر يعبر عن الجماعة التي تندمج في تلقّيه. ذلك أن الشعر الشفاهي مرتبط بالأداء أمام جمهور المتلقّين الذين يلعبون دورا ما في توجيه النصّ الشفاهي

حسب الظروف الزمكانية. في الجزائر ومنذ بدايات ظهور الشعر الشفاهي الذي يُداول وينتقل عن طريق السماع، والمشافهة والحفظ، وينتقل من محفل إلى آخر عن طريق الذاكرة وحدها، فهو متغيّر بالتعديل والإضافة، وربما قصيدة واحدة بها خمسون بيتا في البداية قد تتضاعف عدّة مرّات. كان الشعر الشفاهي في الجزائر، ولا يزال من أهمّ أشكال التعبير يتداوله الشعب في المناسبات الوطنية، والدينية، والاجتماعية. عبّر الشاعر الشعبي أيام الاستعمار عن القحط، والجفاف، وضيق العيش؛ كما عبّر عن سخطه من الاستعمار، وأعدائه الذين كانوا يُثقلون كاهل الشعب بالأتاوي والرشاوي، كما عبّر عن هويّته، بدءا بحدود قبيلته، مروراً بمحيطه الجهوي، ووصولاً إلى الانتماء القومي والوطني، بدأ هذا الشعر الشفاهي مفتقرا في البداية إلى النضج السياسي عند الشفاهيين البدو، ليأخذ في التبلور والوضوح، والنضج مع بروز الحركة الوطنية والإصلاحية بخاصة في الحواضر أين وصلت دعوات حزب الشعب أوّلا، ثم طموحات جمعية العلماء. لقد ارتبط الشعر الشعبي الجزائري منذ بداياته الأولى باللحظات الحاسمة في تاريخ الجزائر، لا سيّما بعد تعرّضها لحمالات الغزو؛ إذ وقف الشاعر يسجل حملات الصليب، ويدعو بقصائد حماسية إلى ردّ هذا العدوان،

وضرورة الانتصار للهلال في مواجهة الصليب، وفهم الشاعر الشعبي أن شعره وسيلة من وسائل الدعم، والتجنيد للشعب من أجل الحفاظ على هويته. حين اندلعت ثورة التحرير المباركة كان الشاعر الشعبي الجزائري جنديا من جنودها يسجل مآثرها، ويدعو إلى مؤازرتها، وينقل أحداثها من منطقة إلى أخرى، راويا شعره في الأسواق، والأفراح، والمقاهي، والبيوت، والتجمّعات، ناعتا الذين خانوها بأبشع الصفات، مؤديا بذلك أدوارا كثيرة مثل: الإعلام والدعاية، وحشد الهمم، وشحذها للانضمام إلى الثورة على الرغم من أن أشعاره ليست بالضرورة نابعة من فلسفة سياسية؛ وإنما لبست ملامح السياسة، وأشارت إلى القضايا بالفن الشعبي المشحون بالسداجة الحلوة، وعفوية الخاطر السريع، وانطوت على إرادة في التغيير إلى الأفضل. إن العديد من قصائد الشعر الشعبي الجزائري التي تناولت واقع الإنسان الجزائري، ومقاومته للاستعمار الفرنسي في القرنين الماضيين، هي قصائد طوال أشبه بملاحم بطولية، يمكن إدراجها في الأدب الملحمي. ظهر شعراء كثيرون في معظم جهات الوطن يصعب حصرهم، وفيهم الكثير صاروا فحولا في هذا الشعر.

السينما الجزائرية عليّة..!! ؟

صنّاع السينما وعشاقها في بلادنا يُقرّون أن الشاشة الكبيرة في الجزائر تعيش أزمة سينمائية مزمنة طال أمدّها، وهي بحاجة إلى إرادة قوية من جميع شركائها لإعادة بعث مشروع ثقافي يعيد مجدها السابق الذي عاشته في الستينات والسبعينات من القرن الماضي. ويبدو أن الأسباب عديدة منها انعدام وجود مشروع ثقافي وطني يتخذ من القطاع السمعي البصري بما في ذلك السينما أداة ثقافية على غرار المجالات الأخرى من خلال تنشيط هذا القطاع، برصد الموارد البشرية والمادية الكافية، وتشجيع ربط الاتصال بين المنتجين، والمخرجين، والكتّاب، وتشجيع المخرجين الشباب على إنتاج أفلام تتطرّق لقضايا المجتمع المستجدة، وهي كثيرة، فمن غير المنطقي والإنسان الجزائري في يومياته المعاصرة يعيش ويعايش قضايا اجتماعية، وسياسية لا حصر لها، ونتكلّم فقط عن الأفلام التاريخية والثورية، ولعلّ من هذا المنطلق يمكن لهؤلاء المخرجين الشباب التفاعل مع النصوص الأدبية الجزائرية المعاصرة. نجاح السينما في الجزائر منذ الاستقلال حتى منتصف

الثمانينات، وأخصّ بالذكر الأفلام التاريخية، والثورية يعود في رأيي حينذاك إلى الروح الوطنية المتوهّجة، والقرب تاريخياً من سنوات الثورة التي أحداثها، ومآسيها لا تزال حاضرة في المخيال الشعبي، وغلبة نسبة المواطنين الجزائريين الذين صنعوا، وعاشوا تلك الأحداث، والتأثر بطولات ثورة التحرير، وبالتالي أفلام تلك الفترة كانت متماهية، ومعبّرة بصدق عن الشعب الجزائري، بغضّ النظر عن ماهية النصّ، وإن كان النصّ الإبداعي لكُتاب معروفين أكثر نجاحاً من غيره كما هي نصوص محمد ديب، وعبد الحميد بن هدوقة، والطاهر وطار.

لكن بعد الزلزال السياسي والأمني الذي هزّ الجزائر في كل المجالات، وقلّب القيم والاتجاهات رأساً على عقب، وبروز أجيال جديدة لا تؤمن بما كانت تؤمن به الأجيال التي قبلها، تسبّب في فقد السينما مكانتها. إضافة إلى أن أجيال ما بعد الاستقلال كانت السينما بكل أطيافها تشكّل حيّزاً من يومياتها ولياليها في كل المدن الجزائرية، من أفلام ثورية جزائرية، وحرّية عالمية، وأفلام اجتماعية، وأخرى عاطفية أجنبية وخاصة العربية. قاعات عرض الأفلام كانت متواجدة في كل أحياء المدن، بل في الشارع الواحد بالكاد تتواجد أكثر من قاعة، وحتى في الجزائر العميقة كانت لا تخلو بلدة من قاعة

للعرض، فمدينة الوادي الحالية المتواجدة بالجنوب الشرقي الجزائري قبل أن تكون ولاية سنة 1984 كانت بها قاعتان لعرض الأفلام أسبوعيا، واليوم ولا قاعة بها، ويشبه حالها حال المدن، والبلدات الجزائرية كلها. السينما أزمته متأتية من أسباب أخرى تُضاف إلى ما سبق، وهي توافر أدوات أخرى معرفية صارت بين أيدي الإنسان الجزائري مثل غيره في كل بقاع العالم، بضغط زرّ وهو في بيته تفتح أمامه عوالم عديدة ومغرية حسب اختياره، ووفق رغبته وذوقه: أفلام، فيديوهات، مسرحيات، برامج، محاضرات، سهرات فنية.. ولما نتحدث عن هذه العوالم الجديدة ليس معناه أن الجزائري المعاصر اختار هذه العوالم الجديدة اقتناعا منه بأنها الأفضل من غيرها كالكتاب والمجلة، والمحاضرة؛ بل تدخل في تديني المقرئية والتكاسل في الشقّف، والشاقف. الجلوس أمام شاشة التلفزة والارتخاء والبحلقة في الصور المتتالية، أو الإبحار في الشبكة، أو دغدغة الهاتف الذكي هي التي تجلب هذا الإنسان، بل تخدّره. في بلادنا ومنذ أواخر الثمانينات نكصت السينما عندنا في الجزائر على عقبيها عندما تخلّت عن النصّ الأدبي، وتحوّل المنتج، أو المخرج إلى سيناريسيت يكتب باللهجة الهجينة، أو بالفرنسية، وأعرض عن النصّ الأدبي الجزائري، ممّا أفقد

الأفلام السينمائية الجزائرية المنتجة أخيرا مكانتها محليا، وعالميا، بعد تألق الأفلام الجزائرية الثورية الرائدة بعد الاستقلال وحصولها على الجوائز لأنها كانت تستمدّ من نصوص لأدباء جزائريين معروفين، ومخرجين ذوي قدرة وكفاءة. الأمر لا يتعلّق فقط في عزوف المنتجين والمخرجين الجزائريين، ونظرهم الاستعلائية عن النصّ الأدبي الجزائري فيكتفون بوضع السيناريو بأنفسهم؛ لأنّ أغلب مستواهم في اللغة العربية ضعيف من ناحية، وليس لهم نيّة في الاتصال بروائيين جزائريين لهم روايات رائدة يتعاونون معهم في كتابة السيناريو، أو يوكلون الأمر كله للروائي نفسه تفاديا لتشويه النصّ الأصلي من ناحية أخرى.

في تقديري ليست المشكلة في ضُعف النصوص الروائية التي تفتقر إلى مقومات العمل الدرامي . النصوص الجيدة كثيرة عندنا ، والمطابع تقذف في كل سنة نصوصا روائية جيدة لكُتّاب جزائريين لهم شهرتهم محليا وعربيا، وعالميا؛ ونصوصا لروائيين شباب أبدعوا نصوصا معاصرة تألقوا فيها داخل الوطن، وخارجه إلا أنّ قلة القادرين عندنا على تحويل النصوص الروائية إلى سيناريوهات ناجحة تقترب فيها الصورة مع النص بنسب مقبولة، ولا يتشوّه فيها النصّ الأصلي تحوّل دون تطوّر السينما والمسلسلات التلفزيونية.

فهرس الموضوعات

03مقدمة

أفكارٌ في الواجهة 09

- 11 هل تكفي دسترة الثقافة ؟. 01
15 أزمة غياب مشروع ثقافي مجتمعي متكامل. 02
19 بدائل معاصرة تطيح بالمتقف التقليدي من عليائه. 03
23 عالم يمور بالأحداث المتسارعة.. المثقف العربي عنه غائب ومُغَيَّب 04
28 هل عندنا جمهور ثقافي ؟. 05
32 النشر في المواقع الاجتماعية ..مسكّنٌ آني خادعٌ للمفكر والمبدع 06
35 الكاتب الجزائري لم يتخلّ عن رسالته. 07

.. وخيرٌ جلييس 39

- 41 كُتِبَ احتفت بها الذاكرة ، أرست مسار حياتي المعرفي والأدي 08
46 كنتاجيب القرآن الكريم وعبق التاريخ 09
51 ..وتبقى معارض الكتاب منبعاً للفكر والتناقف 10

الأدب نبض الوجدان 55

- 57 الأدب متعة وإثراء معرفي 11

64	ثقافة الطفل قوامها الأدب.	12
67	أدب الطفل بين جهل أو استقالة الأسرة ، وتخلي المدرسة	13
72	الإبداع الأدبي الشبابي ومسافة الألف ميل.	14
75	عتباتٌ تُغري الممتلئ وتقوده إلى النصّ	15
84	مجموعتي القصصية الأولى.. أيقونة الروح وبدايات الحكيم	16
90	الملتقيات الأدبية .. تبقى فضاء للتواصل والتعارف والتناغم	17
94	البحث عن النصّ الأدبي الجزائري في الكتاب المدرسي.....	18
98	النصّ الأدبي الجزائري النسوي يتألق.	19

مصايح أضاءت 105

107	الشاعر الكبير حمري بحري يُحتفى به ويُكرّم في الوادي	20
115	الرحالة إيزابيل إبراهيمت .. عاشقة وادي سُوف	21

تحت دائرة الضوء - قراءات 129

131	فصول من بلاغة الرمل .. قراءة في كتاب الدكتور عادل محلو	22
153	مذكرات الطريق .. قراءة في كتاب الأستاذ المترجم ميهي عبد القادر	23
162	قاموس الشهيد .. قراءة في كتاب الأستاذ سعد بن البشير العمامرة	24
170	المكوّن السلفي في عقيدة راشد الغنوشي .. قراءة في كتاب الضاوي.	25
179	رحيل شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله .. قراءة في كتاب	26

186	كتاب العين والمدى..	27
199	النص الرقمي.. وإبدالات النقل المعرفي	28
213	دور قصص الأطفال	29

رُفوفاً 217

219	تقديم كتاب: العُرف المعروف في قسمة أغواط وتراب سُوف	30
224	تقديم المجموعة القصصية : ثغرات في حياتها.	31
227	تقديم كتاب : إضاءات للمرحوم شرادة الجيلاني	32

في رحاب الفنون والآداب 233

235	الفن أيقونة الحياة	33
240	الفنّان ذاك الإنسان	34
242	الأدب والفنون الجميلة	35
247	الرواية نصٌّ إبداعيٌّ تاريخيٌّ مشاكس	36
251	كاتب المذكرات غيرُ حياديّ	37
255	الملحمة في الشعر الجزائري	38
263	السينما الجزائرية عليّلة	39

بشير خلف



. كاتب وقاصٌّ، وإطار تربوي متقاعد.. بدأ الإبداع الأدبي منذ سنة 1972 .
نشرت له : مجلات " آمال " و"الثقافة " الكثير من إنتاجه القصصي. وكذلك مجلة " الرؤيا" لاتحاد الكتاب الجزائريين، ومجلة " الأديب " لصاحبها المرحوم ألبير الأديب ببيروت. نشر في أغلب الصحف الوطنية.. لا يزال يكتب ويبدع ، وينشر في المواقع: ديوان العرب ، الحوار المتمدن ، صفاف الإبداع ، مجلة أصوات الشمال، الأدب العربي.
له مدوّنة رابطها التالي: (**سوف أوراق ثقافية**) .

صدرت له المؤلفات التالية :

1. أحاديث على شريط الزمن (في عدد خاصٍ عن وزارة الثقافة سنة 1977)، ثم في سنة 1982 عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
2. القرص الأحمر. مجموعة قصصية. (عن ش. و. ن. ت 1986) .
3. الشموخ. مجموعة قصصية. (عن الجاحظية 1999).
4. الدّفء المفقود. مجموعة قصصية. (عن الجاحظية سنة 1999) .
5. ظلالٌ بلا أجساد. مجموعة قصصية. (وزارة الثقافة 2007)
6. الكتابة للطفل بين العلم والفن. دراسة. (وزارة الثقافة 2007)
7. الجمال فينا وحوّلنا. دراسة. (وزارة الثقافة 2007)
8. الجمال رؤيةٌ أخرى للحياة. دراسة. (وزارة الثقافة 2007)
9. الفنون لغة الوجدان. دراسة. (وزارة الثقافة 2009)
10. الفنون في حياتنا. دراسة. (وزارة الثقافة 2009)
11. وقفات فكرية.. حوارٌ مع الذات، وحوارٌ للآخر. مقالات (وزارة الثقافة 2009)

12. مرايا.. حديث في الثقافة والجمال والفنون . (مديرية الثقافة بالوادي 2012)
13. مؤانسات ثقافية . مقالات . (وزارة الثقافة 2013)
14. حوارات في الفكر والثقافة والأدب والتربية مع وسائل الإعلام (مديرية الثقافة بالوادي : 2015) .
15. على أجنحة الخيال . مقالات . (وزارة الثقافة 2015)
16. الأعمال غير الكاملة .. مجموعات قصصية خمسٌ (دار الثقافة بالوادي 2015)
17. تغاريد قلم . حديث في الفكر والأدب والفن . (2017)
18. لا قليل من الفرح .. قصصٌ قصيرة جداً . (2017)
19. ترانيم في حضرة القبح . ومضات قصصية (2017)
20. المجتمع المدني وحقوق الإنسان (جاهزٌ للطبع) . مُودَعٌ لدى وزارة الثقافة
21. ثقافة الحوار مع الذات ومع الآخر (جاهز للطبع) . مُودَعٌ لدى وزارة الثقافة

كُتُبٌ أُخرى، إعداد وإشراف بشير خلف

21. " إضاءات .. نقد " للمرحوم شرادة الجيلاني (دار الثقافة بالوادي 2016)
22. " تواشيح .. حوارات ثقافية للإعلامية جميلة طلباوي (رابطة الفكر والإبداع 2016)
23. " هذه حياتي " للمرحوم العلامة محمد الطاهر تليلي (دار الثقافة بالوادي 2017)

مؤسسات ثقافية

- * عضو عامل في اتحاد الكتاب الجزائريين منذ 1973 .
- * عضو مؤسس وعامل في الجمعية الوطنية الثقافية " الجاحظية " . 1990
- * عضو مؤسس في الجمعية الوطنية " بيت الشعر الجزائري " 2017
- * يرأس حاليا الجمعية الثقافية الولائية :رابطة الفكر والإبداع بولاية الوادي، منذ 2001

من متن هذا الكتاب

جوهرُ الجمال هو تحقيقُ التوازن في المشاعر،
والأحاسيس، والحكم على الأمور بطريقة صحيحة دون
مغلاة. علمًا أن الفرد ليس مخلوقًا فحسب؛ إنما هو إنسان
يكتسب إنسانيته من تعايشه مع الآخر في انسجام
وحميمية، وهذه لن تتأتى إلا من خلال التربية الروحية من
عقيدة دينية إسلامية سمحاء، ولمسات أدبية، وفنية؛
فالأدب تربية للوجدان، إذ هو مرآة لكل زمان ومكان، فما
كتب في التاريخ غالبًا من باب قوة سياسية وتوجهاتها،
وأما الأدب فهو مرجع أصدق، وأغنى لمعرفة أحوال الناس،
وشؤونهم في مرحلة زمنية ما. وهكذا فإن محتوى الأدب،
أبعد من مضمونه المرتبط بمعاني الكلمات، وجماليات
التعبير والصياغة، إذ هو بمثابة الأسس التي تغني الحياة
وتضيف لها.

تصميم كمال خزان



بمساهمة دار الثقافة
محمد الامين العمودي
ولاية الوادي

المطبعة
والنشر
والتوزيع
سَامِي



9 789931 650263